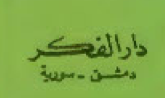
الأستاذ الدكتور
مفيد رائف محمود العابد

معالم تاريخ الدولة الساسانية
(عصر الأكاسرة)
٢٢٦ - ٦٥١ م

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان





بسم الله الرحمن الرحيم

معالم
تاريخ الدولة الساسانية
(عصر الأكاسرة)

(٢٢٦ـ٦٥١م)

معالم تاريخ الدولة الساسانية : عصر الأكاسرة ٢٢٦-٦٥١م/ مفيد رائف محمود العابد. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩. - ١٦٠ص؛ ٢٤سم

١- ٩٣٥ ع اب م ٢-العنوان ٣-العابد

مكتبة الأسد

ع: ١٢٠١/ ٧/ ١٩٩٩

الأستاذ الدكتور

مفيد رائف محمود العابد

معالم
تاريخ الدولة الساسانية
(عصر الأكاسرة)

(٢٢٦-٦٥١م)



الرقم الاصطلاحي : ١٢٧٣, ٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-639-8
الرقم الموضوعي: ٩٤٠
الموضوع: تاريخ العالم
العنوان: معالم تاريخ الدولة السّاسانيّة
(عصر الأكاسرة)
التأليف: أ. د. مفيد رائف محمود العابد
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٦٠ ص
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com



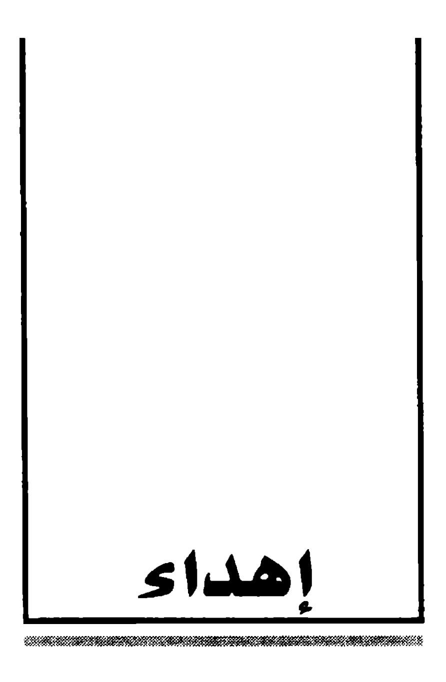
الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة



إلى الغالية .. سميَّة أم رائف

مفيد

تقديم

بعد الحمد لله والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق محمد عليه الصّلاة والسّلام .

تقرّر جامعات الخليج العربي عامة والجامعات السعودية خاصة على طلبتها دراسة مقرر بعنوان تاريخ الدولة الساسانية[1] في حين تكتفي الجامعات العربية الأخرى - فيما أعرف منها - بتدريس تاريخ الدولة الساسانية مقدمة لدراسة مقرر الفتوحات الإسلامية . ولست أدّعي هنا أن تدريس هذا المقرر مفصّلاً وتحت عنوان كبير هو الأصلح ، لأنني هيأت نفسي هنا لكتابة كتاب بهذا العنوان ، ولكني أشير إلى أن تقديم معلومات سياسية فقط أو حضارية مجتزأة عن تاريخ إمبراطورية كانت في بعض أزهى فتراتها أقوى دولة في العالم ، أو كانت في أحلك فتراتها إحدى الدّولتين العظميين في تاريخ المنطقة هو إجحاف بتاريخ منطقة نعيش بين ظهرانيها . وخاصة أن تاريخها تواصل مع تاريخ العرب ثم المسلمين أخذاً وعطاءً أثراً وتأثيراً بدرجة كبيرة .

ولهذا ، فإن غاية هذه الدراسة ، إلقاء ضوء ما ، على فترة تاريخيّة هامّة في تاريخ

---

(١) يطلق على هذه الدولة في بعض المراجع العامة وخاصة كتابات التاريخ العالمي العام اسم الدولة الفارسية الجديدة أو الدولة الفارسية الثانية ، باعتبار أن الدولة الفارسية الأولى هي (الأخمينية Achaemenids) أو الدولة (الهاخامانيش Hachamanish) التي أسّسها قورش وداريوس الأول (أواسط القرن السادس ق . م) وقضى الإسكندر المقدوني على آخر ملوكها داريوس الثالث ٣٣٠ ق . م .

الشرق المسلم والعالم المتحضّر ، لم يبذل المؤرّخون العرب المعاصرون جهوداً ملموسة في سبيل التّعريف بها ، أو البحث في ثناياها وأعماقها . ولست أدّعي هنا أنني قمت بهذا الجهد البحثي المعمّق ، بل إنني أقدمت بعد تحكيم تصوري لطبيعة تاريخ هذه الفترة على تقديم صورة عن جهودي التي بذلتها عندما قمت بتدريس مقرر تاريخ الدولة الساسانية في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود خلال الأعوام (١٤١٥ ـ ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٥ ـ ١٩٩٩ م) ، وهي فترة اضطرتني إلى مراجعة عدد كبير من المصادر العربية مثل (الطبري) و (الثعالبي) و (الفردوسي) و (الدّينوري) و (المسعودي) و (الشهرستاني) و (ابن الأثير) وغيرها . والفارسية مثل (الشاهنامه) و (تاج نامه) و (مزدك نامه) وغيرها ، والمصادر الكلاسيكية ومنها (ديوكاسيوس) و (يوسيبيوس) و (أميانوس ماركلينوس) و (ليبانيوس) و (مالالاس) وغيرها من المصادر ، وأكثر منها من المراجع . ولما كانت غايتي الأساسية فائدة القارئ والدارس العام ، وجدتني لا أذيّل صفحات هذه الدراسة بالإحالات إلى المصادر والمراجع إلا في حالات بسيطة ، إذ إن الإحالات لا تهمّ كثيراً القرّاء الذين من أجلهم أقدّم هذه الدراسة .

ولأنها واحدة من أشهر دول التاريخ القديم ، فقد اهتمّ بدراستها منذ القرن الثامن عشر عدد كبير من المستشرقين خاصة الألمان منهم ، ويليهم الفرنسيون ، ولعلهم اهتمّوا أكثر ما يكون في دراسة العقائد الدينية الفارسية ، وتأثير الفكر الفارسي ، وتأثّره بحضارات الأمم المجاورة ، كالهنود والصينيين والأتراك والرّافديين والعرب والرّومان . وقد أقدم عدد من المترجمين العرب ـ مشكورين ـ على ترجمة عدد من الكتب أشهرها كتاب آرثر كريستنسن (Arthur Christensen) ، الذي كتبه بالفرنسية بعنوان (L'iran Sous Les Sassanides) ونشره سنة (١٩٤٤ م) ، وحمل بالعربية عنوان (إيران في عهد السّاسانيين) . وكتاب حسن بيرنيا الذي كتبه بالفارسية بعنوان

(تاريخ إيران القديم) . والكتابان على جلال قدرهما وأهميتهما إلا أنهما لم يقدّما الفائدة المرجوة منهما لقارئ العربية .

فالأول ازدحم بتفاصيل لا قِبَل حتى للمتخصّصين بتتبُّعها ، إضافة إلى تداخل وتناثر الموضوعات فيها بشكل يجعل من العسير على القارئ الذي يرغب بالاطّلاع على عنوان محدد الحصول على مبتغاه دون أن يضطر إلى تقليب طويل لصفحات الكتاب .

أما الكتاب الثاني فعلى عكس الأول فقد جاء مختصراً بشكل مخلّ . ويبدو أن هذا الكاتب أراد وضع فهرس لأبرز أحداث تاريخ إيران القديم مضخمة وشوفينية بشكل مبالغ فيه أكثر من رغبته بكتابة تاريخ فعلي لإيران القديم منذ بداية التاريخ حتى نهاية السّاسانيين .

ويلاحظ المطّلع على هذه الدراسة أنها حاولت جهد المستطاع تقديم دراسة ترتكز على معلومات معقولة تناسب الطالب الجامعي العربي الذي يعدُّ نفسه لاقتحام مجاهل التاريخ ، وكذلك القارئ العام الذي يرغب في التّعرُّف على المراحل السياسية والحضارية لتاريخ الساسانيين ، مع ربطها بالأحداث العالمية المعاصرة ، دون تفاصيل مملّة أو اختصار مخلّ . وأتت الدراسة على طريق تحقيق هذا الهدف دون أن تتوصل إليه ، إذ لا تطمع أي دراسة في العلوم النظرية إلى أكثر من أن تتجنّب النّقد . ويسرّني فعلاً في هذا المقام أنني تمكّنت أخيراً من وضع هذه الدراسة بين أيدي قرّاء العربية ، لتكونِ عوناً على استجلاء معظم وأهم مراحل تاريخ هذه الدولة السياسي والحضاري . ولست أشك في أنها ستكون مصدر فائدة لكلٍّ من المتخصّصين والهواة من دارسي ومحبّي التاريخ .

وبعد انتهائي من كتابة مسودة هذا الكتاب عرضتها على صديقي الدكتور محمد بهجت قبيسي أستاذ التاريخ القديم بجامعة حلب الذي قرأها بدقّة ، وزوّدني بتعليقات وملاحظات قيّمة ، جعلتني أعود إلى ما كتبت فغيّرت فيه حين كان ذلك لصالح

الدراسة ، وحذفت ما لا يتّفق وطبيعته المبسّطة ، وأضفت حين كانت الإضافة سبيلاً إلى الوضوح ، فله كل الشكر على كل ما بذله من وقت ثمين .

أرجو في ختام هذه المقدمة أن أكون قد حقّقت ما طمحت إليه منذ أن كان الكتاب فكرة ، وأتقدّم بشكر جزيل إلى كل من يوجّه نقده البنّاء مكتوباً بعد قراءة هذه الصفحات ، لأن في ذلك خيراً للجميع ... والله أسأل التوفيق والهداية .

جامعة الملك سعود بالرّياض ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

تمهيد

أولاً ـ الإطار الجغرافي لدولة بني ساسان :

تشكل الهضبة الإيرانية الجزء الأكبر والرئيسي من أراضي الممالك أو الدول التي سيطرت على تاريخ المنطقة لفترة من الزمن امتدت من العيلاميين (٢٢٢٥ ـ ٧٤٥ ق . م) حتى الساسانيين (٢٢٤ ـ ٦٤٠ م) ، مروراً بالآكاديّين والسومريّين والبابليّين والآشوريّين والميديّين والفرس والبارثيّين . ومع أن سيطرة هذه الحضارات على الهضبة الإيرانية تفاوتت امتداداً أو انحساراً وقوةً أو تراخياً ، فإن تضاريس هذه الهضبة شكّلت المرتكز الجغرافي الأهمّ في تاريخ هذه الحضارات ، مما يدفعنا إلى التمهيد بدراسة موجزة عن المكوّنات الجغرافية لهذه المنطقة .

وتشمل الهضبة الإيرانية عدداً من السهول الواسعة التي يخترقها عدد من الأنهار والجبال الصغرى والوديان الزراعية والصحارى المترامية ، والتي تحيط بها جميعاً سلاسل من الجبال ، يطلق على السلسلة الشمالية الغربية منها اسم جبال القوقاز ، وعلى السلسلة الجنوبية منها جبال البرز وجبال زاغروس التي تمتد من الشمال إلى الجنوب وصولاً إلى بحر عمان . وتبلغ الهضبة الإيرانية أقصى ارتفاع لها عن سطح البحر في المنطقة الجنوبية ، ويتدرج هذا الارتفاع انخفاضاً باتّجاه الشمال ، كما تبلغ مساحتها نحو مليونين وست مئة ألف كم^2 . وعلى الرغم من أن الهضبة تقع بين خطي عرض (٤٢ ـ ٢٤ شمال) ، وهو واقع لا يساعد على ملاحظة تباين شديد في درجات الحرارة بين

أصقاعها المختلفة إلا ما يسبّبه ارتفاع وانخفاض بعض المناطق وقربها أو بعدها عن الشواطئ البحرية أو الصحارى ، فإنه يغلب على مناخ الهضبة الجفاف الذي يسبّبه وجود صحراء تدعى صحراء لوط أواسط الهضبة . ويسود القسم الأكبر من الهضبة خاصة في المناطق الشمالية والساحلية الجنوبية مناخ المناطق المعتدلة الذي يتلقى أمطاراً في الشتاء تساعد على قيام زراعة نشيطة طوال أيام السنة ، تعتمد في غالبها على الأمطار ، وفي أقلّها على مياه الأنهار مَثل نهر قارون ، الذي يصب في شط العرب جنوباً ، والنهر الأحمر الذي يصب في بحر الخزر شمالاً ، ونهر هيلمند ونهر جيحون (أوكسوس) اللذين يصبّان في بحر آرال في الشمال . ويوجد في أراضي الهضبة عدد من البحيرات الكبرى ذات المياه المالحة ، وعدد أقلّ من البحيرات الحلوة .

وتطلُّ الهضبة الإيرانيّة من الجنوب على المحيط الهندي والخليج العربي ، وقد سهّلت لها هذه الإطلالة اتّصالات مبكّرة مع المنطقة العربية والهندية والإغريقية خاصة في مجال تبادل المنتوجات عبر إقليم ماجان (عمان والإمارات المعاصرة) . وتعدُّ أراضي الهضبة الإيرانية من أغنى مناطق العالم بمعظم المعادن التي استخدمها الإنسان القديم خاصة النحاس والحديد والرصاص والفحم والفيروز والذهب .

وترتبط الهضبة الإيرانية بين أقاليمها المتعددة والأقاليم الخارجية بعدد من الطرق الهامّة ، والتي لعل أهمها من الناحية التاريخية ، الطريق الذي يصل بين الهضبة ومنطقة الرافدين عبر نهر الدجلة وجبال زاغروس إلى مدينة همدان ، والطريق الذي يصل بين وادي كابول في أفغانستان إلى بيشاور عبر جبال سليمان في وادي السّند ، والطريق الذي يعبر ممرّ خيبر وهو طريق عسكري ، والطريق الذي يصل بين أفغانستان ووادي جيحون شمال الهضبة ، والطريق الذي يصل بين مدينة كمرون (بندر عباس) إلى شيراز ، والطريق الذي يصل من مدينة الرّي (Ray) إلى أصفهان وخراسان وجيلان . وغيرها من الطرق أقل أهميّة . وجدير بالذكر أن تعدُّد الأقاليم

ووعورتها في بعض المناطق وقلّة الأمن في بعض الفترات قلّلت من أهمية الهضبة الإيرانية بوصفها ممرّاً تجاريّاً عالميّاً بالمقارنة مع الجزيرة العربية ، وفضّل تجار العصور القديمة الاعتماد على التجارة البحرية وصولاً إلى المنطقة العربية في معظم فترات التاريخ القديم .

وتشير الدلائل الأثرية على أن الهضبة الإيرانية استوطنت منذ فجر التاريخ بأقوام عرقية متفاوتة حتى قدوم المجموعات التي أطلقت اسمها على هذه الهضبة ، وهي العناصر التي انفصلت عن الشعوب الهندية الأوربية ، وأطلق عليها العلماء المختصّون اسم العناصر الآريّة[1] ، التي تعود بأصولها إلى الألف الثالث ق.م . وكانت أول مناطق إقامتهم بعد انفصالهم عن مجموعتهم الهندية الأوربية في الإقليم الذي تحصره مياه نهرَي سيحون وجيحون (أوكسوس وياكسارتيس) وهما اللذان يصبّان في بحر آرال شمال الهضبة الإيرانيّة .

ثانياً ـ موجز في تاريخ المنطقة قبل الساسانيين

١ ـ مرحلة التّبعية لدول الرافدين :

أطلق المؤرّخون المعاصرون لفظة عيلام على مملكة ضمّت بين جنباتها عدداً من أقاليم المنطقة أهمّها خوزستان . وكان نهر دجلة يحدّ هذه المملكة من الغرب ، ويحدّها شرقاً إقليم فارس ، وشمالاً الطريق المتدّ من بابل إلى همدان ، ومن الجنوب الخليج العربي حتى مدينة بوشهر . وكانت مدينة شوش تعدُّ أهم مدن عيلام ومن أقدم مدن العالم . ولا يعرف شيء عن الشعوب التي شكّلت مملكة عيلام ، وإن كانت بعض الدراسات ترى أنهم من العناصر السمراء الذين هاجمتهم العناصر السومرية التي استولت على المنطقة .

---

(١) يعتقد بعض المحقّقين أن هذه الأقوام كانت تطلق على نفسها اسم (آيريا) وتعني النجيب أو الوفي ، ولهذا أطلقوا على منطقتهم اسم (آيران) ، ثم تطورت لتصبح إيران فيما بعد .

ويربط المؤرّخون المعاصرون عادة تاريخ السومريين بتاريخ شعب آخر استوطن المنطقة في تلك الفترة وهم (الآكاديّون) لدرجة أن بعض الباحثين يفترضون أن السومريين والآكاديين كانوا شعباً واحداً ، وأن السومريين أقاموا أولاً في منطقة الرافدين ثم الآكاديين ، وأن تاريخهم يعود إلى أواخر الألف الرابع ق.م . وأن أشهر مدنهم كانت مدينة (بابل) التي نشرت نفوذها على جنوبي الرافدين وقسم من الهضبة الإيرانية . ونحو سنة (٢٨٠٠ ق.م) أقام الملك صارغون الآكادي مملكة قضت على السومريين ، ومدّت نفوذها على منطقة الرافدين ، وغرباً إلى بلاد الشام ، وشرقاً حتى أواسط إيران ، وشمالاً حتى جبال زاغروس . ونحو سنة (٢٥٠٠ ق.م) استعاد السومريّون عافيتهم ، وأسّسوا أسرة حاكمة في عاصمتهم لجش (Lagach) التي تدهورت حالتها بدءاً من سنة (٢٤٥٠ ق.م) لصالح مدينة أور التي حكمها في تلك الفترة عدد من الحكام المحليّين الذين اعتمدوا اللغة السُّومرية بدلاً من اللغة السّامية الآكادية التي سادت زمن صارغون .

ونحو سنة (٢٢٨٠ ق.م) تمكّن العيلاميّون من هزيمة السومريين ، واستردّوا عاصمتهم أور ، وتبعت سومر إلى عيلام نحو قرن من الزمن إلى أن تمكّنت أسرة سومرية من توحيد سومر وآكاد ، إلا أنها لم تفلح في مقارعة العيلاميين ، واندثر شعب سومر وآكاد بعد اختلاطهم بالأقوام الأخرى في مناطق الخليج وآسية الغربية على وجه التحديد .

وقد شهدت المنطقة نحو سنة (٢٢٢٥ ق.م) هجرة سامية ضخمة أطلق عليها المؤرّخون اسم الهجرة البابلية نسبة إلى عاصمتهم في تلك الأثناء . وتذكر الدراسات أن هذه الدولة كانت أكبر قوة سياسية وعسكرية جاورت العيلاميين الذين حاولوا مقاومة البابليين ، ولم يتمكّنوا منهم إلى أن قضت على البابليين مجموعة من القبائل مجهولة المنشأ ، يطلق عليهم المؤرّخون اسم الحيثيّين (Hatti) الذين تعرّضوا بدورهم لهجوم قبائل (الكاسيّين) الذين أسّسوا حكومتهم في الرافدين ، ونازعوا العيلاميين للسيطرة

على المنطقـة ، ولكنهم لم يصمـدوا أمـام العيلاميين الـذين استعـانوا أواخر الألف الثـاني بالكلدانيّين الساميّين ، وسيطروا على منطقة بابل التي تنـازلوا عنهـا أخيراً بعـد انتصـار الآشوريين الساحق على شعوب المنطقة في عهـد ملكهم الكبير آشور نـابونـاصر (٧٤٧ ـ ٧٣٢ ق.م) .

وتذكر المصادر أن الآشوريّين حكموا بـالحـديـد والنـار منطقـة شـاسعـة من آسيـة الغربيـة مـدة تقرب من ألف سنـة ، وقضت دولتهم في مـدة ببسيطـة على الحيثيين ، وأخضعت المـدن الفينيقيّـة في سـوريـة ، وأنهم تقـدّمـوا شرقـاً في الهضبـة الإيرانيـة ، وأخضعوا الميديّين والفرس الذين تحيّنوا الفرصة للإيقاع بغالبيتهم بـدءاً من عهـد الملـك الكبير آشور بانيبال ، الـذي قهرهم كما قهر آخر انتفـاضـة للعيلاميين ضـدّ الآشوريين ، وسقطت دولة عيلام سنة (٦٤٥ ق.م) وطواها الزمن .

٢ ـ مرحلة الحكم الوطني :

أ ـ السيادة الميدية :

وبدءاً من نهاية القرن السـابع ق.م شهـدت المنطقـة نمو القوى العسكريـة في إقليم ميـديـة ، ممـا أدى إلى سيـادة هـذه القـوى على إقليم إيران ، ثم الأقـاليم المجـاورة في الرافـدين . وتبعهم الفرسُ ، وبعـد ذلـك الإغريـق والمقـدونيّـون ، وأخيراً البـارثيّـون أو الإشكانيّون .

وكان الميـديّون من العنـاصر الآريـة التي استوطنت أحـد أقـاليم الهضبـة الإيرانيـة الشماليـة (جنوب غرب بحر قزوين) ، وهو أحـد الأقـاليم الـزراعيـة الغنيـة التي اشتهر أهلوها بتربية أجود أنواع الخيول وبالقتال على ظهورهـا . وقـد مكّنتهم هـذه الصفـات من تحطيم الـدولـة الآشوريـة بمساعـدة البـابليين سنـة (٦٠٦ ق.م) ، وتوسّعت هـذه الـدولـة بـاتجـاه الغرب وصـولاً إلى آسيـة الصغرى ، لكنهـا ولأسبـاب مجهـولـة تعرّضت

لانقلاب سياسي نحو سنة (٥٥٠ ق.م) قاده ضابط فارسي[١] كبير ضدّ آخر الملوك الميديّين وهو أستوآجس (Astyages) .

ب ـ السيادة الفارسية :

وتشير المصادر الفارسية الباكرة أن الضابط قورش تمكّن من قيادة العناصر الفارسية وبعض المعارضين للحكم الميدي في أقاليم الهضبة الإيرانية في حرب ضدّ الميديّين ، وانتصر عليهم ودخل عاصمتهم إكباتانا (Ecbatana) همدان اليوم . وكانت أول حروبه الخارجية ضدّ مملكة لوديه (Lydia) في آسية الصغرى التي قضى عليها نحو سنة (٥٤٩ ق.م) . وتابع توسّعه باتّجاه مملكة بابل التي ضمّها أيضاً نحو سنة (٥٣٨ ق.م) ، ومات وهو يعدُّ العدّة لقتال مصر سنة (٥٢٩ ق.م) ، وقد أفلح ابنه المدعو قمبيز (Cambyses) في الاستيلاء على مصر في عهد آخر ملوكها (بسماتيك الثالث) ، وأصبحت الدولة الفارسية في عهده القوة الأكبر في العالم القديم ، على أنها لم تستمر كذلك لفترة طويلة ، إذ توفي قمبيز في سورية في طريقه من مصر إلى الهضبة الإيرانية ، وتسلّم الحكم أحد أنسباء الأسرة المالكة وهو داريوس (Darius) ويعرف بدارا الكبير .

وقد عانى دارا في بداية عهده من ثورات المناطق التي خضعت سابقاً لحكم قورش وقمبيز ، وتمكن من القضاء على ثورات بابل ، وميديه ، وأرمينية ، وباكتريه ، وبدوالساكا ومصر . واستولى بعد ذلك على البنجاب والسند في حرب مريرة لدرجة أن تاريخ تلك الحرب أصبح واحداً من تاريخين رئيسيين لتاريخ الهند عموماً ، أولهما انتشار الديانة البوذية ، وثانيهما حرب دارا في البنجاب والسند ، وقد مهدت الظروف السياسية لدارا رغبته في ضم بلاد اليونان إلى إمبراطوريته التي أصبحت بعد احتلاله شمال الهند تضم معظم أصقاع العالم المعروف وقتئذ باستثناء بلاد اليونان . وتفسير ذلك

(١) فارس أو (Persia) هي إحدى مقاطعات الهضبة الإيرانية الجنوبية شمال الخليج العربي .

أن الفرس كانوا يعتمدون على الطغاة[1] في حكم المدن الدول الإغريقية في بلاد اليونان وآسية الصغرى ، وكان هؤلاء الطغاة يلجؤون إلى الإمبراطورية الفارسية ، عندما تثور شعوبهم ضدهم ، ويقومون أثناء لجوئهم السياسي بتحريض الملك الفارسي لإعادتهم إلى مراكزهم بالقوة العسكرية ، وقد انطبقت هذه الحالة على طاغية مدينة أثينا هيبياس (Hippias) الذي فرّ سنة (٥١٠ ق.م) من بلاده ، والتجأ إلى الملك دارا ، وحرضه على إعادته إلى أثينا ، وكانت أثينا قد ساعدت ثورة قامت بها مدينة ملطية في آسية الصغرى ضد الفرس ، للحصول على استقلالها مما دفع دارا بعد قضائه على الثورة في مهدها إلى القسم بأنه سيعاقب أثينا على تجرؤها بمساعدة ثوار ملطية ، وأرسل جيوشه التي لم تفلح في الحصول على نصر على أثينا التي انتصرت في معركة سهل الماراثون (Marathon) ، وعادت جيوش دارا تجر أذيال الخيبة . وأثناء الإعداد للحرب القادمة ضد بلاد اليونان مات دارا الأول سنة (٤٨٦ ق.م) ، وتسلم الحكم ابنه اكسركس (Xerxes) الذي قاد بنفسه حرباً ضد المدن الدول في بلاد اليونان التي اتحدت أثناء استعدادات الحرب ، وفشل هو الآخر في تحقيق أي انتصار صريح على اليونانيين .

وقد عانت الهضبة الإيرانية بعد مقتل اكسركس الأول سنة (٤٦٥ ق.م) من حالة تمزق سياسي أدت إليها صراعات الأسرة الحاكمة ، وتدخل النساء في الحكم ، وتتالى على الحكم عدد من الملوك الذين لم يحققوا أي إنجازات عسكرية أو سياسية أو حضارية متميزة ، باستثناء تفاقم النزاعات بين مدن بلاد اليونان ، ولجوء هذه المدن إلى فارس لفض خلافاتها أو لنصرتها على بعضها ، خاصة تلك الخلافات التي نشبت بين أثينا وإسبرطة ، ولجوء الأخيرة إلى إطاعة الملك الفارسي وتنفيذ أوامره ، وكان آخر ملك

---

(١) الطغيان (Tyranny) والحاكم طاغية (Tyrannos) نظام حكم عرفته المدن والدول في بلاد اليونان وآسية الصغرى وفحواه : أن يحكم فرد واحد مجتمعه دون الحصول على شرعية دستورية بل على تأييد جماهيري كبير . وكان معظم الطغاة يعتمدون في حكمهم شعوبهم على قوى خارجية .

فارسي حكم في تلك الفترة هو دارا الثالث الذي تولى الحكم سنة (٣٣٦ ق.م) ، وفي عهده حدثت غزوة الإسكندر الأكبر للشرق .

٣ ـ مرحلة السيادة الخارجية (المقدونيون) :

وكان الإسكندر الأكبر قد ورث عن أبيه فيليب الثاني رغبته في توحيد بلاد اليونان وقيادتها في حرب قومية ضدّ الفرس ، وقد أنجز الإسكندر مهمّة استعادة وحدة بلاد اليونان بعد ثورتها في وجهه عقب مقتل والده ، وتحرّك في ربيع سنة (٣٣٦ ق.م) باتّجاه آسيه على رأس جيش لا يزيد عن خمسة وثلاثين ألفاً ، ولكنه مجهز ومدرّب كأحسن ما تكون جيوش العصر[١] . وحقّق الإسكندر نصره الأول في معركة جرانيكوس (Granikos) قرب بحر البوسفور ، وتقدم إلى شمالي سورية لمواجهة دارا الثالث نفسه في موقعة إسوس (Issos) ، وفيها حقّق الإسكندر نصره الثاني ، واحتلّ سورية ثم مصر التي غادرها باتّجاه شمال العراق حيث كان الملك الفارسي قد حشد آخر جيوشه بالقرب من أربيل المحاصرة . وفي الموقعة التي عرفت باسم موقعة جاوجميلا (Gaugamela) سحق الإسكندر الجيش الفارسي ، ولحق بمليكه إلى أن تمكّن أحد الضباط الفرس من قتل مليكه لإنهاء هذه الحرب . وعندما دخل الإسكندر العاصمة الفارسية اكباتانا (همدان) طويت صفحة من صفحات تاريخ المنطقة ، وبدأت صفحة جديدة تحت رعاية ممثلين جدد وهم المقدونيون .

وبعد وفاة الإسكندر المفاجأة سنة (٣٢٣ ق.م) ، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره تصارع قادته صراعاً مريراً أدى إلى انقسام الإمبراطورية الوليدة إلى ثلاث ممالك :

البطلمية في مصر .
والأنتيجونية في بلاد اليونان .
والسّلوقية في آسية الغربية .

(١) يعزو المؤرّخون المعاصرون انتصار الإسكندر إلى التّشكُّل المعروف الفيلق (phalanx) المقدوني الذي كان يخترق دفاعات العدو بسرعة ويساهم في تفريق صفوفه .

وقد تبعتها كل من آسية الصغرى وسورية الكبرى والرّافدين والهضبة الإيرانية وقسم من شمالي الهند ، وهي المنطقة التي كانت تحت سيطرة الفرس قبل قدوم الإسكندر .

٤ ـ المنطقة تحت السيادة البارثية :

ونظراً لاتّساع المملكة السلوقية الهائل فقد اعتمد ملوكها النظام اللامركزي الذي اتّبعه الإسكندر فيما مضى لإدارتها ، وعلى هذا فقد اعترفوا بحقوق بعض الأسر الحاكمة للحكم في أقاليمها ، وخاصة البعيدة منها عن مركز الإمبراطورية ، وكان من أشهر هؤلاء الحكام الذين تبعوا الإسكندر ، وبعد ذلك خلفاءه السّلوقيين في آسية ، سلالة الملوك الذين حكموا إقليم بارثية (Parthia) وهو أحد أشهر أقاليم الهضبة الإيرانية ، يقع إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين ، وقد اعترف أوائل الملوك السلوقيين لهؤلاء بالاستقلال الذاتي ، ومع أنهم كانوا بداة إلا أنهم اتّخذوا شكل الإدارة والنظم والعادات الإغريقية في بلاطهم وإداراتهم الرسمية ولغتهم ونقودهم . وكانت علاقاتهم بالبلاط السلوقي طيبة حتى تسلم الحكم أرساكس (Arsaces) سنة (٢٥٦ ق.م) في عهد الملك السلوقي أنطيوخس الثاني حيث رفع أرساكس راية العصيان ضد السلوقيين ، وتمكّن من تأسيس دولته التي اتّسعت في عهد خلفائه ودحرت جيوشها السّلوقيين من بلاد الرافدين حتى الصحراء السورية ، كما هددت العاصمة أنطاكية ، ثم قامت بتوحيد معظم أصقاع الهضبة الإيرانية ، وضمّت عدداً من مناطق شمالي الهند إلى ملكيتها . وأصبحت في اتّساعها وقوتها مرهوبة لا تعادلها بين دول العالم إلا روما في أقصى غرب المتوسط ، وكانت عاصمتها طيسفون (Ctesephon) المدائن اليوم ، في الشتاء ، وأكباتانا في الصيف ، وقد حكم من ملوكها نحو ٣٨ ملكاً دام حكمهم نحو ٤٧٠ سنة . وكان آخرهم المدعو أرطبان (Artabanus) أو أردوان الخامس الذي انتصر عليه مؤسس الأسرة الساسانية سنة (٢٢٤ ق.م) .

مقدمة في
مصادر تاريخ الدولة الساسانية

يقسم المؤرّخون المعاصرون مصادر تاريخ الدولة الساسانية إلى خمسة أقسام رئيسة مرتبة حسب أهميتها :

وهي الفارسية[1] نقوشاً وكتابات .

وثانيها المأثورات العربية والفارسية عن الفترة الساسانية ، وهي في معظمها كتابات أصيلة ترجمت إلى العربية والبهلوية في فترات لاحقة .

وثالثها المصادر الكلاسيكية أو الإغريقية الرومانية التي كتبت في روما أو القسطنطينية أو أنطاكية أو الإسكندرية باليونانية واللاتينية .

ورابعها المصادر الأرمنية .

وأخيراً المصادر السّريانية .

---

(١) فارس أو (Persia) هي واحدة من الأقاليم التي تكون الهضبة الإيرانية ، ومع ذلك يستخدم العامة كما بعض الخاصة هذا التعبير للدلالة على كل المنطقة الإيرانية . ولكننا في هذه الدراسة سوف نستخدم كلمة فارس للدلالة على إيران ، في الوقت نفسه الذي نسمي الحكومات بأسماء الحكام الميديون والبارثيون والباكتريون والأخمينيون وغيرها للتفريق بين الفترات الزمنية .

أولاً ـ المصادر الفارسية

كما يمكن تقسيم المصادر الفارسية بدورها إلى قسمين رئيسيين :

الأول : ويتعلّق بالنقوش على الأوابد والكتابات والرسوم على النقود .

والثاني : يتعلّق بالكتابات المقدسة وشبه المقدسة الرسمية التي ألّفت أثناء سيطرة السّاسانيين على المنطقة .

١ ـ نقوش الأوابد

ويعدُّ نقش بايكولي (Paikuli) في كردستان شمالي قصر شيرين أشهر نقوش العصر ، وهو مكتوب على برج مربع البناء باللهجتين الرسميتين في العصر الساساني البهلوية البارثية والبهلوية الساسانية ، ويظهر النقش صورة الملك نرسي (Narssai) على جوانب البرج الأربعة . ومع أن البرج الحامل للنقش قد تعرّض لعوادي زمن قاسية إلا أنه احتفظ حتى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٦٨ م) ببعض من رسومه وكتاباته ، التي نشرت في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية .

كما قام أحد المختصين سنة (١٩١١ و ١٩١٣ م) بنشر صور فوتوغرافية مع دراسة ميدانية لهذه الكتابات والنقوش في (نشرة أكاديمية برلين) .

وفي سنة (١٩٢٤ م) صدرت دراسة أخرى لجميع النقوش التي عثر عليها في منطقة بايكولي ، مما أتاح للمؤرخين واللغويين التعرُّف على جانب من حضارة الساسانيين في عهد الملك نرسي .

وتأتي مجموعة من النقوش ثانية في ترتيب الأهمية ، وفي مقدّمتها نقش رستم ، ويعود إلى عهد أردشير الأول ، ونقش رجب من عهد سابور الأول بن أردشير ، ونقش حاجي آباد من عهد سابور الأول أيضاً ، ونقش مدينة سابور في إقليم فارس من عهد الملك نرسي ، ونقش طاق البستان من عهد سابور الثاني . ونقوش أقل أهمية مجاورة

للنقوش السابقة من عهد سابور الثالث ، ونقوش أخرى عثر عليها في مدينة برسبوليس (اصطخر) ودربند وغيرها .

وقدمت لنا كتابات النقود ورسومها معلومات قيمة عن سني حكم الملوك وأشكالهم وأرديتهم ، خاصة أردية الرأس والتيجان التي اختلفت وتطورت حسب العصور ، إضافة إلى معلومات عن الحالة الاقتصادية والسياسة النقدية والدينية . وقد تبين أن الساسانيين سكّوا نقوداً ذهبية بصورة أقل من الرومان ، في حين أنهم اعتمدوا بشكل واسع على النقود الفضّية التي ضربت حسب المعيار الفينيقي ، الذي تراوح وزن الدرهم بين (٣,٦٥ ـ ٣,٩٤) غراماً ، واختلف بذلك عن الدرهم البارثي الأشكاني[١] ، الذي كان أصغر حجماً وأكثر سمكاً ، وكانت النقود الساسانية حتى النحاسية منها تحمل عادة صورة الملك واسمه وبعض ألقابه ، وأحياناً سنة تتويجه إضافة إلى صورة أحد معابد النار واسمه .

٢ ـ الكتابات المقدسة والرسمية

ويعدُّ كتاب (الأوستا) المقدس أكثر مصادر معلوماتنا أهمية عن التاريخ الساساني الحضاري ، وينقسم الكتاب إلى واحد وعشرين قسماً ، يليه في الأهمية كتاب (الزّند) وهو الترجمة البهلوية لنصوص الأوستا مع شروح لها . وأخيراً كتاب (البندهشن) وهو مختصر للمعلومات الواردة في (الأوستا والزند) ، وتتعلق بأسطورة الخلق والتاريخ الطبيعي والخرافي للعالم من وجهة النظر الزرادشتية .

ويلي الكتب المقدسة السابقة مجموعة من الكتب العامة ، وأشهرها كتاب

---

(١) تعتمد الدراسات التاريخية المعاصرة للدولة التي خلفها الساسانيون في حكم منطقة الرافدين والهضبة الإيرانية إحدى التّسميتين : أولاهما الدولة الأشكانية وهي تسمية فارسية ، وثانيهما الدولة البارثية وهي تسمية يونانية ، نسبة إلى إقليم بارثية الذي انحدر منه ملوك هذه الدولة ، وسنعتمد تسمية البارثية في هذا الكتاب لشيوعها أكثر في المراجع الحديثة .

(ماذيكان هزار دادستان) ، ويضم إضافة إلى أسماء بعض أشهر القضاة ، مجموعة من فتاويهم القضائية من خلال ممارستهم القانون اعتماداً على الأوستا والزند اللذين كانا مصدر التشريع الساساني الأول . يضاف إلى هذه الكتب كتاب (دستوران) الذي يذكر عدداً من التشريعات التي لم يرد لها ذكر في كتب التشريع السابقة . وفي الفترة الأخيرة من حكم الساسانيين على ما يبدو أصدر بعض المثقفين عدداً من الرسائل الشعبية في الأخلاق التي كانت تسمى (بندنامة) أو (كتب النصائح) ، تحتوي على أبرز القواعد الأخلاقية ، وأشهر الحكم التي تعزوها هذه الكتب إلى حكماء وأنبياء وملوك وعظماء التاريخ الأقدمين . ويعدُّ كتاب (بُزَرْجُمُهْرَ) أشهر هذه الكتب على الإطلاق ، ويعزى إلى وزير كسرى الأول ، وقد انتشر هذا الكتاب في العصور الوسطى الإسلامية عند العرب والفرس على حدٍّ سواء . ويعتقد بعض الدارسين أن بُزَرْجُمُهْرَ هذا الذي اقترن اسمه بلعبة الشطرنج التي نقلها من الهند ، لم يكن إلا بَرْزَوَيْهِ (Barzaweh) كبير أطباء الملك كسرى أنوشروان الذي سنتحدث عنه لاحقاً .

ثانياً ـ الروايات الساسانية في التراث العربي والفارسي

بناءً على التقاويم الرسمية التي اعتمدها الملوك الساسانيون منذ فترة باكرة أقدم مجموعة من كُتّاب العصر على تصنيف أحد أشهر الكتب السياسية والتاريخية في تاريخ هذه الدولة الذي حمل عنواناً بالبهلوية الساسانية (خداي نامه) كما حمل عنواناً بالبهلوية الفارسية (شاهنامه) ، وهو الكتاب الذي ترجمه ابن المقفع (ت نحو ٧٦٠ م) بعنوان (سير ملوك العجم) أو (سير الملوك) . كما نقل عنه حمزة الأصفهاني نحو سنة (٩٦١ م) ، ونقل عنه آخرون مثل الفردوسي ، ومحمد بن الجهم البرمكي ، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني ، ومحمد بن مطيار الأصفهاني ، وهشام بن قاسم الأصفهاني ، وموسى بن عيسى ، وبهرام بن مردانشاه ، وغيرهم ممن أضافوا أو أدخلوا أو تصرّفوا في النّص الأصلي ، بنسب تقلّ أو تكثر بحسب ذمّة المترجم . ويجدر بالذكر

أن نص الكتاب الأصلي يتوقّف عند وفاة كسرى الثاني ، وأن عدداً من كتاب الدولة المتأخرين أكملوا نصّ الكتاب حتى يزدجرد الثالث ونهاية الدولة الساسانية .

ويبدو أن ابن المقفع لم يترجم (سير ملوك العجم) فقط بل ترجم أيضاً كتاباً آخر يضمّ تفاصيل أخرى عن الملوك الساسانيين وحياتهم الخاصة ، ونُظُم الحكم المتطورة في دولتهم وهو كتاب (آيين نامك) أو (كتاب الرسوم) ، الذي وصفه المسعودي في (التنبيه والإشراف) بأنه كان رسمياً ومقدّساً لدرجة أنه لم يكن يمتلكه أحد غير الموابدة (رجال الدين) ، كما وردت معلومات عنه في ما كتبه الثعالبي وابن قتيبة وحمزة الأصفهاني عن الساسانيين ، ويضيف المسعودي معلومات عن كتاب ساساني معاصر بعنوان كتاب (كاهنامك = كتاب الرجال) يعتقد بأنه ألحق في فترة ما بالكتاب السابق ، ويتحدث عن طبقات ومراتب عظماء الدولة الساسانية والتي بلغت ست مئة .

ويذكر ابن النديم في فهرسه كتاباً آخر بعنوان (تاج نامه = كتاب التاج) ويبدو من عنوانه أنه تخصص في ذكر أحاديث ملوك الساسانيين وأوامرهم وتعاليمهم . وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار) مقتطفات من الكتاب حتى إنه نسب أحاديث إلى ملوك لم يذكر أسماءهم ، وقد اعتمد الطبري على معلومات وردت في كتاب (التاج) ، ومنها رسائل من سابور الثالث إلى ولاته وكتاب أرسله بهرام الرابع إلى قادته العسكريين ، وكتاب آخر من كسرى أنوشروان إلى أحد ولاته . وجدير بالذكر أن بعض الدراسات الحديثة تشير إلى احتمال وجود كتابين بعنوان (تاج نامه) ، ثانيهما في سيرة كسرى أنوشروان ، وهو الكتاب الذي يذكره ابن النديم ، وينكر وجوده بعض المؤرّخين الغربيين .

ويضيف المؤرّخون المهتّمون إلى مصادر الرّوايات الساسانية كتاباً ينسب إلى كبير وزراء أردشير الأول المدعو تنسر يقال : إنه أرسله إلى ملك طبرستان يدعوه فيه إلى

طاعة الملك الجديد للمنطقة الإيرانية وما حولها ، والكتاب ليس رسالة فقط ، وإنما هو عرض تاريخي وجغرافي للواقع في المنطقة ، ودعوة سياسية عقلانية ، وتقويم أخلاقي للعصر ، وهو بحث مثقف للقارئ المعاصر يتفق ومضامين كتب النصائح التي شاعت أيام الساسانيين . ومع أن عدداً من المؤرّخين يشكّون في نسبة هذا الكتاب إلى تنسر لاحتوائه على قوانين يتعذّر الاعتقاد بنسبتها إلى مؤسس الدولة الساسانية أردشير الأول ، ويقترحون نسبة الكتاب إلى أيام أنوشروان ، إلا أن هذا لا يقلّل إطلاقاً من قيمة الكتاب بوصفه مخطوطاً معاصراً خاصة عند حديثه عن قواعد وراثة العرش ، والتي لا تضمن سنناً ملزمة لكل الملوك من سلالة أردشير ، وكذلك فيمن يخولهم من القادة باتخاذ ألقاب الملوك ، وأيضاً في تحديد حدود الدولة ، وتعريف لأبرز جاراتها من الدول وأبرز جيرانها من الأمم .

ويضاف إلى الكتب السابقة كتابان أحدهما بعنوان (مزدك نامك = كتاب مزدك) و (بهرام جوبين نامك = كتاب بهرام جوبين) .

يتحدّث الكتاب الأول عن المصلح الاجتماعي مزدك وصلاته مع الملك قباد الأول ، وقد ترجمه ابن المقفع وأشار إليه حمزة الأصفهاني وغيره .

أما الكتاب الثاني فهو تاريخ مغتصب العرش الساساني بهرام جوبين ، وترجمه جبلة بن سالم الذي ورد ذكره في الفهرست لابن النديم ، كما ذكر القصة نفسها الفردوسي في (شاهنامته) .

ولم يقتصر العرب في مساهماتهم على ترجمة بعض الكتب التاريخية الساسانية بل تعدّاها إلى التأليف ، حيث أقدم بعض الكتّاب العرب اعتماداً على مصادر معاصرة على كتابة تاريخ للدولة الساسانية أو جزء منه ، وكان منهم الثعالبي الذي كتب (أخبار ملوك الفرس) ، وكتاب مجهول المؤلف بعنوان (نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب) وكتاب ابن البلخي بعنوان (فارس نامه) ، وشارك في كتابة جزئيه عن

هـذه الفترة كل من ابن مسكـويـه ، وابن الأثير ، وأبي الفـداء ، وابن خرداذبـة ، والهمـداني ، والأصطخري ، وابن حوقـل ، وحمـد الله القـزويني ، والجـاحـظ وغيرهم ، ولكن هذه المشاركة لم تكن على مستوى الكتابات السابقة .

ثالثاً ـ المصادر الكلاسيكية[1]

لم تخصص الكتـابـات الـلاتينيـة أو اليـونـانيـة التي صـدرت في مراكـز الحضـارة الكلاسيكية في أنطاكية أو القسطنطينية أو الإسكندرية أو روما أو غيرهـا من المراكز الأقل أهمية حيّزاً كبيراً بين دفّتيها لتاريخ الدولة الساسانية ، ومرد ذلـك فيما يبـدو إلى الحسـاسيـة القـوميـة ثم الـدينيـة التي استعرت بين الـدولتين المتنـافستين الرومـانيـة ثم البيزنطية من جهة والساسانية من جهة أخرى .

وتعـدُّ كتـابـات المـؤرخ الرومـاني ديـو كاسيـوس (Dio Cassius) الـذي كتب تاريخاً لروما منذ بدايته حتى سنة (٢٢٩ م) أقدم الكتابات الكلاسيكية ، التي أشارت لقيام الدولة الساسانية ، خاصة في الأقسام المتأخرة التي تحدثت عن أقاليم الإمبراطورية الرومانية الشرقية . على أن أكثر هذه الكتـابـات تفصيلاً وحـديثـاً عن تعـاقب الحكّـام السـاسـانيين وردت عنـد المؤرخ السوري[2] (هـروديـان Herodian) الـذي عـاش في القرن الثـالث الميـلادي ، وكتب تـاريخـاً من ثمـانيـة أجـزاء لمنطقـة غربي آسيـة منـذ الإمبراطور مـاركوس أوريليوس حتى الإمبراطـور جـورديـان الثـالث أي من (١٨٠ ـ ٢٣٨ م) ، كما زخرت كتابات المؤرخ دكسيبوس (Dexippus) الذي ازدهر في أواخر القرن الثـالث الميـلادي ، وكتب مجموعـة من التـواريـخ مقتـديـاً بـالمـؤرّخ الأثيني (ثوكوديدس) مؤرخ حرب البلويونيز بين أثينا وإسبرطة تزيد عن عشرين كتـابـاً ، غطّت الفترة من خلفـاء الإسكنـدر المقـدوني حتى (٢٧٠ م) . زخرت بمعلومـات عن

(١) يطلق المؤرخون صفة الكلاسيكية على التاريخ والحضارة واللغات التي تنتسب إلى الإغريق والرومان .

(٢) يطلق على هذا المؤرخ لقب (السوري) تمييزاً له عن عالم النحو الإسكندري (هروديـان) الـذي عـاش في روما في عصر الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، أي في الفترة نفسها التي عاش فيها هروديان السوري .

أوائل الملوك الساسانيين . أضاف إليها معاصره لاكتانتيوس فيرميانوس (Lactantius Firmianus) الذي يلقب بشيشرون[1] النصارى (The Christian Cicero) عدداً من الحوادث عن عصر سابور الأول ، والتي لا تخلو من مبالغة أحياناً ، خاصة فيما يتعلّق بحادثة أسر الإمبراطور فاليريانوس ، ومعاملته بشكل غير لائق من قبل الملك الساساني سابور الأول . وكذلك في كتابات المؤرخ يوسيبيوس القيساري (Eusebius of Cesarea) في فلسطين ، وخاصة كتاب (التاريخ ـ Chronica) و (تاريخ الكنيسة Church History) وهو التاريخ الذي أكمله المؤرخ روفيوس فستوس (Rufius Festus) حتى أواخر القرن الرابع الميلادي .

ويعدُّ المؤرّخ السوري الأنطاكي أميانوس ماركلينوس (Ammianus Marcellinus) آخر مؤرّخي الفترة الرومانية الكبار الذين كتبوا باللاتينية تاريخ روما منذ سنة (٩٦ ق.م) حتى سنة (٣٧٨ م) وشارك في أحداث الفترة من ٣٥٣ ـ ٣٧٨ قائداً عسكريّاً في سورية ثم في إيطالية وفرنسا . وتعنينا هنا أحداث الحروب التي خاضها الرومان ضدّ سابور الثاني ، والتي يصفها أميانوس ماركلينوس وصف شاهد عيان ، ويضيف إليها بين ثناياها كثيراً من المعلومات عن الدولة الساسانية من الناحية العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية والأخلاقية . وهي معلومات أضاف إليها المؤرخ يوترويبيوس (Eutropuis) الذي عاصر حرب الإمبراطور جوليان ضدّ الساسانيين نحو سنة (٣٦٣) ، وكذلك المؤرّخ ليبانيوس (Libanius) الأنطاكي نحو سنة (٣٩٣) .

وتعدُّ كتابات الرّاهب سفروس (Severus) التي اعتمدت على تاريخ العهد القديم (التوراة) وصولاً إلى العلاقات بين البيزنطيين النصارى والساسانيين الزرادشتيين في العقد الثاني من القرن الخامس الميلادي ، أول كتابات نصرانية عن العلاقة بين الدولتين

(١) شيشرون شخصية رومانية (١٠٦ ـ ٤٣ ق.م) يعدُّ من أبرز الخطباء والفلاسفة والسياسيين والقادة في روما في العصر الجمهوري . يشبه المؤرّخون اللاحقون كل عظماء الأدب به .

المتجاورتين ، وهي الكتابات التي تابعها عدد من رجال الدين النصارى ، خاصة أولئك الذين اهتّموا بإبراز الخلاف بين ديانتي الدولتين لعل أبرزهم ثيودور الموبسوهستي (Theodorus of Mopsuheste) والتي نقل لنا قسماً منها أواخر القرن التاسع الميلادي بطريرك القسطنطينية فوتيوس (Photius) وكذلك يوسبيوس (Eusebius) من قيسارية في فلسطين (٢٦٠ ـ ٣٤٠ م) ، وسوزومنوس (Sozomenus) (٤٤٣ م) ، وزوسيموس (Zosimos) الوثني (٥٠٠ م) . كما تعدُّ كتابات بروكوبيوس (Procopius) من قيسارية في فلسطين ، وكان من أبرز رجالات البلاط البيزنطي في عهد جوستنيان الأول أفضل الكتابات الكلاسيكية إطلاقاً عن عصر الملكين قباذ الأول وكسرى الأول خاصة من النواحي الإدارية والتّنظيمية في الدولة الساسانية ، وكذلك كتابات المؤرخ يوحنا مالالاس (John Malalas) عن الديانة المزدكية نحو سنة (٥٧٨ م) إضافة إلى عدد كبير من المؤرّخين والكتاب أقل أهمية ممن ذكروا في هذه الإلماحة .

رابعاً ـ المصادر الأرمنيّة

ويصنّف المؤرّخون المهتّمون بتاريخ الدولة الساسانية المصادر الأرمنية في مقدمة المصادر الهامة عن تاريخ هذه الدولة ، وذلك للارتباط الوثيق بين كل من أرمينية من جهة والدولة الساسانية والبيزنطية من جهة ثانية . فقد كانت منطقة أرمينية مسرح الحوادث بين الدولتين الكبيرتين والجائزة في آن واحد ، ولهذا فقد أمدّنا المؤرّخون الأرمن الذين عاصروا الأحداث بمعلومات ذات قيمة كبيرة عن الدولتين المعاصرتين ، خاصة فيا يتصل بعلاقات كل منهما مع الأرمن ، وأحياناً في تفاصيل النظم والحضارة في كل من الدولتين .

ويعدُّ كتاب تاريخ الملك الأرمني تيرايداتس (Tiridates) إضافة إلى كتاب (نبوءة سان جورج) من أفضل مصادرنا عن التاريخ الباكر لأرمينية النصرانية ،

وما عاصره من أحداث في الدولة الساسانية ، وتضم هـذه الكتب عـدداً من الأجزاء التي جمعت نحو سنة (٤٥٦ م) ، واحتوت قصصاً خرافيـة عن دخول النصرانيـة إلى أرمينيـة باعتبارها أول دولة في الشرق اعتنقت الـدين الجـديـد ، وقـد ترجم مـا تبقى من هـذه النّصوص إلى اليونانية وبعد ذلك إلى الفرنسيـة . ومن المصـادر الأرمنيـة الهـامـة كتـاب مجهول المؤلف بعنوان (حيـاة القـديس نـارسس) ، وكتـاب (تـاريـخ إقليم تـاراون) Taraun لمؤلّفه الأسقف زنوب (Zenob) يضاف إليه كتاب تـاريخ أرمينيـة لمؤلفـه فـاوستـوس البيزنطي (Faustus of Byzantium) ويستعرض حـوادث أرمينيـة في الفترة من سنـة (٣٢٠ ـ ٣٨٥ م) ، وبعـد هـذا التـاريـخ بنحـو خمسين سنـة (٤٤٥ ـ ٤٤٧ م) كتب المـؤرّخ الأرمني إزنيـك كـولب (Eznik Kolb) كتـابـه (الرّد على الفرق) ويتحدث فيه عن رأي نصارى الأرمن بالديانة الزرادشتيـة . وفي الفترة نفسهـا كتب مؤرخ نابه من أرمينية كتاباً آخر عن تاريخ بلاده ، تناول فيه أهم حوادثها مـا بين (٣٣٨ ـ ٤٨٥ م) . وفي تاريخ لاحق ألّف المؤرخ الأرمني سبيوس (Sebeos) تاريخاً بعنوان (الإمبراطور هرقل في إيران) تحدث فيه بـاختصـار عن عهـد الملـك السـاسـاني فيروز حتى سنة (٥٩١ م) . لكنه توسّع كثيراً في فصول كتابـه الأخيرة ، خـاصـة فترة سيادة المسلمين العرب في المنطقة الإيرانية . على أن أفضل ما كتب عن تـاريخ أرمينيـة ينسب إلى المؤرّخ مـوسى الخـوريني (Moses of Chorene) الـذي كتب نحـو القرن التاسع ، وتضمن تفاصيل هامة عن تاريخ الساسانيين ، وقـد حقق الكتـاب بـالألمـانيـة المستشرق ماركارت ، ويذكر أن تعليقات هذا المستشرق على النص الإجمـالي تعـدُّ بقيمـة المصدر نفسه ، ويستحيل على مهتم بالتاريخ الساساني الاستغناء عنها .

خامساً ـ المصادر السّريانية

وهي المصادر التي كتبها بالسريانية رجـال الـدين النصـارى ممن عـاصروا أحـداث العصر الساساني ، وربطوها بتواريخ المجامع الكنسية التي عقـدت في زمـانهم ، وبـذلـك

ساهموا في تثبيت بعض تواريخ الأحداث التي ربطها مؤرّخوها أحياناً بسني حكم الملوك ، أو بأحداث كونية غير محددة . ويأتي في مقدمة هذه المصادر التاريخ المنسوب إلى يوشع الستيليتي (Joshwa the Stylite) الذي كتبه سنة (٥٠٧ م) ويغطي حوادث السنوات من (٤٩٤ ـ ٥٠٦ م) ، أي الفترة الأولى من حكم الملك قباذ الأول ، مع ملخص للفترة السابقة منذ عهد الملك فيروز . وقد أشارت المصادر إلى ثلاثة تواريخ مجهولة المؤلف منها (تاريخ الرّها = أديسة) ويغطي الفترة من (١٣٢ ق.م) إلى (٥٤٠ م) ، وكتاب (تاريخ أربيل) ويغطي القرن الثاني إلى نحو سنة (٥٥٠ م) ، و (التاريخ المختصر) ويغطي الفترة من موت الملك هرمزد الرابع سنة (٥٩٠) حتى الفتح الإسلامي .

ويضاف إلى هذه التواريخ المجهولة المؤلف عدد من التواريخ لمؤرّخين معروفين أهمها (تاريخ إلياس النصيبيني) ، و (تاريخ ميشيل السّرياني) ، و (أعمال المجامع الكنسيّة) ، و (كتاب الولاة) لمؤلفها تموتاس المرجي (Timotas) ، وكتاب (حياة البطاركة) ، و (أعمال الشهداء الفرس) ، وكلها تتناول العلاقة بين الكنيسة النّصرانية النّسطورية وملوك الدولة الساسانية .

الجــزء الأول

معالم التاريخ السياسي
للدولة الساسانية

أولاً ـ أردشير الأول وتأسيس الأسرة الساسانية

تنسبُ الأُسر الحاكمة بداياتها عادة وبعد تولّيها الحكم إلى أجداد خرافيين إمعاناً في إضفاء صفات العظمة على بداياتها ، وهو أمر لا نلحظه في تاريخ الأسرة الساسانية التي تعزو بداياتها إلى إقليم فارس وإلى جدّها الأول ساسان (Sásan) ، الذي تذكر أنه كان كاهناً لمعبد النار في مدينة برسبوليس (Persepolis) = اصطخر (Istakhr) ، وكانت عاصمة الإقليم الذي كان يحكمه ملوك محلّيون من الأسرة البارازنجية الفارسية . وكان ساسان قد عهد بوظيفته تلك إلى ابنه المدعو بابك ، الذي توسّط بدوره لدى الملك الفارسي لتعيين ابنه أردشير (Artaxerexes)[1] قائداً عسكرياً في إقليم فارس ، وقد أفاد بابك من القوة العسكرية التي تمتع بها ابنه لدرجة أنه هاجم الملك الفارسي البارازنجي وقتله واستولى على حكم إقليم فارس . وعندما طلب مباركة الملك البارثي أرطبان (أردوان) الخامس لملكيته أعلنه عاصياً ومتمرّداً وسيّر ضدّه جيوشه .

وكان بابك قد مات في تلك الآونة ، وقام ابنه أردشير بادّعاء ملكيته ، وهاجم الأقاليم المجاورة ، وأصبحت لديه قوة عسكرية تضارع بل تتفوق على قوة الملك البارثي نفسه . وفي المعركة التي نشبت بينهما في وادي هرمزدجان انتصر أردشير ، وقتل أرطبان وسار إلى عاصمته المدائن التي دخلها في ٢٨ نيسان (أبريل) سنة (٢٢٤) ، وأعلن نفسه وريثاً للملوك البارثيين ومؤسّساً لسلالة حاكمة جديدة هي الأسرة الساسانية .

وتذكر الروايات أن أردشير رغب في إضفاء شرعية على حكمه الجديد فتزوج سيدة من الأسرة الملكية السابقة ، وهي ابنة أرطبان الملك المقتول ، أو ابنة عمه ، أو حفيدته

---

(١) أرتاركسركس هي الصيغة اليونانية للاسم الفارسي أردشير .

في روايات أخرى . وما إن تمّ له ذلك حتى شنّ سلسلة من الحروب أخضع نتيجتها كلاً من إقليمي ميدية وأرمينية في الشمال والغرب ، وباكترية وأفغانستان وبلوخستان في الشرق ، وإقليمي بابل ، وما بين النّهرين في الجنوب . وفي سنوات قليلة جمع بيديه القويتين أجزاء مملكة البارثيين ، وأضاف إليها أقاليم جديدة ، وأنشأ فيها عدداً من المدن الجديدة التي أطلق عليها اسمه تشبُّهاً بالإسكندر المقدوني .

ومن أجل استمالة عواطف عامة الناس إلى جانبه ، أصدر أوامره لجمع كتاب الأوستا ، وهو الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية التي اعتمدها ديناً رسميّاً لدولته ، قائلاً : إنه لا خير في دولة لا دين لها ، ولا خير في دين لا دولة له ، تقدر على حمايته ، وأنشأ المعابد ووسّع في أعداد رجال الدين ، وأصبح رئيسهم واحداً من أكبر مسؤولي الدولة يلي الملك في أهميته ، ولهذا أنشأ الحلف المتين بين رجال الدين الزرادشتي وبين الأسرة الساسانية الذي لم يهن إلا في فترات قليلة من تاريخ هذه الدولة . كما أفاد أردشير من كراهية الشعب لتبذير وإسراف الأسرة البارثية الحاكمة وأزلامهم ، وتجبُّرهم واستبدادهم وازدرائهم لرجال الدين ، فتعقّب هؤلاء وقتل كثيراً منهم .

ولا يمكن في الواقع حصر إنجازات أردشير على المستوى الداخلي ، فقد كانت كثيرة ، إلا أنه يمكن ذكر أهمها :

أولها : اعتماد المركزية الإدارية الشديدة ، وإحكام رقابة العاصمة على أرجاء الدولة .

وثانيها : اتّخاذ الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة ، ودعم رجال الدين .

وثالثها : جمع أجزاء الكتاب المقدس وهو (الأوستا) في كتاب واحد .

ورابعها : تقسيم المواطنين إلى طبقات ، والموظفين إلى مراتب .

ثانياً ـ سابور[1] الأول (Shapur)

تولى الحكم بعد وفاة والده سنة (٢٤١ م) ، واحتفل بتتويجه رسميّاً سنة (٢٤٢ م) ، تذكر المصادر أنه كان واحداً من أشهر ملوك الدولة الساسانية ، فقد كان وسيماً شجاعاً صاحب همّة ومحبوباً من قِبَل الشعب . وفي بداية حكمه ثارت ضدّه أرمينية ومملكة الحضر[2] ، وتذكر المصادر المعاصرة أنه تمكن من القضاء على ثورة أرمينية بسرعة كبيرة ، إلا أن تحصينات الحَضْر كانت قوية لدرجة أنها قاومته أربع سنوات ، ولكنه تمكن منها بعد ذلك بخيانة النَّضيرة ابنة الضَّيْزن ملك الحَضْر .

ويبدو أن الوضع الداخلي المتردّي في الإمبراطورية الرومانية قد أغرى سابور بالتّوسُّع في شمال سورية التي غزاها ، ووصل إلى عاصمتها أنطاكية (Antioch) التي احتلّها في عهد الإمبراطور الروماني ماكسيمينوس (Maximinus) (٢٣٥ ـ ٢٣٨ م) ، وقد تسلّم الحكم بعد اغتياله في روما الإمبراطور جورديان (Gordian) (٢٣٨ ـ ٢٤٤ م) ، وكان مقاتلاً عنيداً جهز جيشه لطرد الساسانيين من أنطاكية وشمال سورية . وكان له ماأراد ، ووصلت جيوشه عاصمة سابور (طيسفون = المدائن) ، وأثناء حصارها تمرّد بعض ضبّاطه ضدّه واغتالوه ، وانتخبوا فيليب (Plipippus)

---

(١) يرد هذا الاسم في بعض المصادر (شاه بوهر) وفي بعض المراجع (شابور Shapur) .

(٢) مملكة عربية قديمة تقع أطلالها الآن في وادي الثرثار جنوب غرب مدينة الموصل ، وكانت إحدى الممالك الواقعة على خط التجارة الشمالي ، استفادت من موقعها بين القوتين العظميين في القرون الأولى للميلاد ، إلى أن دمّرها سابور الأول ، حسب الطبري ، والثعالبي ، والمسعودي ، الذين يذكرون أن النَّضيرة ابنة الضَّيْزَن ملك الحَضْر دلّت سابور على نقطة ضعف في حصن المدينة لقاء أن يتزوجها ، لكنه بعد تدمير المدينة قتل الخائنة إثر معرفته بالعزّ الذي كانت ترفل فيه في عهد والدها .

العربي إمبراطوراً (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) ، الذي عقد مع سابور معاهدة سلام تخلّت بموجبها روما عن أرمينية ، وعاد فيليب إلى روما . لكن خليفته الإمبراطور فاليريانوس (Valerianus) (٢٥٣ ـ ٢٦٠ م) لم يقبل بمعاهدة فيليب سابق الذكر ؛ لأنها ـ على زعمه ـ أهانت الرومان ، لذلك ردّ سابور على هذا الرفض سنة (٢٥٨ م) بتسيير جيش إلى شمالي سورية لتأكيد ملكيته لأصقاعها ، مما دفع فاليريانوس إلى قيادة جيشه لاستخلاص أنطاكية وشمالي سورية مرة أخرى ، وتمكن من ذلك ، إلا أنه أوغل في مطاردة فلول جيوش سابور في بادية الشام مما أدى إلى تشتُّت جيشه ، وفشل حملته ووقوعه أسيراً في يدي سابور ، ثم موته بعد ذلك في الأسر . وتذكر المصادر أن سابور قرر الإفادة من خبرة الرومان ببناء المدن والجسور ، وطلب إلى فاليريانوس قبل وفاته بناء سدّ على نهر قارون لسقاية المزارع التي ترتفع سوية أراضيها عن قاع النهر الأساسي . وقام الإمبراطور الروماني ببناء السّدّ الذي بقي صامداً حتى أيامنا هذه باسم (بند قيصر) أي سد الإمبراطور . كما تنسب الروايات الساسانية إلى فاليريانوس ومهندسيه بالمساعدة في تأسيس مدينتي نيسابور في خراسان ، ومدينة سابور في إقليم فارس ، وجند يسابور في خوزستان . وقد خلّد سابور انتصاره على الرومان بعدد من النقوش والرسوم أهمها (نقش رستم) و (نقش مدينة سابور) ، وفيهما يظهر سابور ممتطياً حصانه ، وهو ينظر إلى الإمبراطور فاليريانوس الذي يستعطفه بذلّة ظاهرة . وفي تلك الأثناء وصل غرور سابور بانتصاراته لدرجة ادّعائه ملكية العالم ، وأطلق على نفسه لقب (شاهنشاه إيران وانيران) أي ملك ملوك إيران وغيرها .

على أن سابور مع كل انتصاراته السابقة لقي هزيمة من عدو لم يحسب له حساباً ، ألا وهو أذينة (Odaenathus) ملك مدينة تدمر العربية في الصحراء السورية ، وكانت أهم مركز تجاري في المنطقة العربية . وكان سابور قد أهان سفراء أذينة الذين حملوا هدايا مليكهم إلى سابور ، فقام أذينة بترصُّد جيش سابور العائد من آسية

الصغرى إلى إيران ، وعلى أطراف البادية السورية الشمالية أنزل أذينة وجيشه هزيمة منكرة بجيش سابور ، وغنم منه غنائم وفيرة وعدداً من نسائه ، ولم يتمكّن سابور من الوصول إلى نهر دجلة إلا بصعوبة فائقة . كما أنه لم يتمكّن من الانتقام لهزيمته هذه طيلة حياته التي استمرّت حتى سنة (٢٧٣ م) .

ثالثاً ـ ملوك الدولة الساسانية من نهاية سابور الأول حتى بداية سابور الثاني (فترة الضعف الأولى)

وهم سبعة ملوك امتدّ حكمهم من (٢٧٢ ـ ٣٦٠ م) ، وتعدُّ من فترات الضعف في تاريخ الدولة الساسانية .

١ ـ هرمزد الأول

حكم بعد أبيه سابور لمدة سنة واحدة (٢٧٢ ـ ٢٧٣) ، ولا يعلم شيء عن الحوادث السياسية التي جرت في عهده باستثناء استدعائه النبي (ماني) للإقامة في قصره ، وأنه كان عسكرياً متميّزاً ، وأنه شارك في حروب والده ضدّ الرومان . وبعده تسلّم أخوه (بهرام الأول) .

٢ ـ بهرام الأول

حكم هذا الملك مدة ثلاث سنوات (٢٧٣ ـ ٢٧٦ م) ، ولعل أبرز حوادث عهده عندما طلبت زنوبيا[1] (Zenobia) ملكة تدمر بعد وفاة زوجها معونة بهرام عند اشتداد ضغط الإمبراطور الروماني أورليانوس (Aurelianus) (٢١٥ ـ ٢٧٥ م) عليها ، فأمدّها بنجدة متواضعة لم تفلح في منع هزيمة زنوبيا ، وساهمت في تكريس عداء أورليانوس للدولة الساسانية وخطط للانتقام منها بإثارة أعدائها الشماليين ،

---

(١) زنوبيا أو (الزبّاء) في المصادر العربية . تسلّمت الحكم بعد وفاة زوجها باسم ابنها وهب اللات (Vaballathus) ، واختلفت مع الرومان مما دفعها لاحتلال آسية الصغرى ومصر . ولكنها لم تستطع الصمود في وجه القوات الرومانية الهائلة التي أرسلتها روما ضدّها ، والتي حاصرت تدمر بعد هزيمة جيشها ودمرتها .

ولكنه لم يتمكّن من متابعة انتقامه فقد مات وهو يعدُّ العدّة لتسيير جيوشه باتجاه الشرق ، كما مات بهرام الأول في الفترة نفسها .

٣ - بهرام الثاني

وفي سنة (٢٧٦ م) تسلم الحكم بهرام الثاني ابن الأول الذي استأنف حربه ضدّ روما ، ومع أنه لم يحقق أي مكاسب عسكرية أو سياسية ضدّها ، إلا أنه خلّف على صخور مدينة سابور عدداً من النقوش التي تؤكد انتصاراته على عدد من الأقوام المتاخمة لدولته التي تصدّى لها خلال فترة حكمه الطويل نسبيّاً (٢٧٦ ـ ٢٩٣) . وبعد موته تولى ابنه (بهرام الثالث) العرش لمدة أربعة شهور حيث ثار عليه عمه نرسي (Narssai) .

٤ ـ نرسي

ولم يكن نرسي موفقاً أيضاً في حروبه ضدّ الرومان ، التي نشبت نتيجة مطامع الدولتين في أرمينية ، وكان نرسي قد طرد ملك أرمينية تريداتس (Tiridates) وكان صنيعة الرومان ، مما دفع الإمبراطور الروماني جالريوس (Galerius) (٢٩٣ ـ ٣٠٩ م) إلى قيادة جيش انتصر على جيش نرسي انتصاراً كاملاً وغنم من بين غنائمه زوج الملك ؛ الملكة أرسان (Arsan) ، مما دفع الملك الساساني إلى عقد معاهدة سلم تنازل فيها عن منطقة الرافدين وأرمينية للرومان الذين أعادوا تنصيب تيريداتس ملكاً ، وقد مات نرسي إثر هذه المعاهدة نحو سنة (٣٠٢ م) .

٥ ـ هرمزد الثاني

وحكم هرمزد الثاني مدة ثماني سنوات (٣٠٢ ـ ٣١٠) ، وكان ملكاً مستنيراً ومحبوباً ، رغب في نشر العدل داخل مملكته ، مما أدى لصدامه مع نبلاء دولته صداماً أدى أخيراً إلى مقتله في إحدى معاركه ضدّ عرب منطقة الخليج ، وبشكل خاص عرب

الأحساء ، الذين كانوا قد استولوا على البحرين واتّخذوها قاعدة لشنّ هجماتهم على الدولة الساسانية .

٦ ـ آذرنرسي

حكم آذرنرسي ابن هرمزد الثاني سنة (٣١٠ م) ، وتعاظم خلافه ضدّ نبلاء دولته لدرجة أنهم أقدموا على اغتياله بعد سنة من حكمه ، وتولية أخيه الجنين سابور[(١)] ملكاً على الدولة الساسانية .

(١) تذكر المصادر الفارسية أن زوج هرمزد الثاني كانت حاملاً بعد وفاة زوجها وتولية آذرنرسي ، كما تذكر أن الأمير هرمزد شقيق آذرنرسي هرب إلى روما بعد اغتيال أخيه ، مما أتاح لنبلاء الدولة أن يختاروا الجنين ملكاً ، وكان ما يزال في بطن أمه عندما علّق التاج في غرفة والدته قبل ولادته بشهرَين .

رابعاً ـ سابور الثاني

ويعدُّ الملك سابور الثاني واحداً من أشهر ملوك الدولة الساسانية نظراً لإنجازاته الكبيرة في الداخل والخارج ، إضافة إلى طول فترة حكمه ، فقد حكم سبعين سنة (٣١٠ ـ ٣٧٩) متواصلة منها عدة شهور قبل ولادته ، وبقي ملكاً تحت الوصاية حتى سنّ السادسة عشرة ، ويبدو أن الملك الشّاب كان ميّالاً للإصلاح منذ حداثة سنّه[١] . كما يبدو أن إحجام المصادر عن ذكر معلومات كافية عن السنوات الثلاثين الأولى التي قضاها في الحكم ، خاصة في مجال السياسة الخارجية ومحاولته الرّدّ على هزائم جدّه الملك نرسي ، مردُّه إلى أن اهتمامات سابور الأولى كانت منصّبة على تذليل مصاعب البلاد الداخلية ، والتي تجلّت أكثر ما يكون في تسلُّط النُّبلاء على القصر الملكي ، وكذلك حماية الحدود ضد القوى الصغرى المشاكسة ، والتي كان من بينها أعراب الجزيرة الذين تمادوا على ما يبدو في طلباتهم من الملك لدرجة قرر معها القيام بحرب حسمت الوضع لصالحه . حتى إن إحدى تفسيرات اللقب الذي حمله سابور الثاني ، وهو (ذو الأكتاف) ، تزعم أنه أمر بثقب أكتاف الثائرين العرب بعد انتصاره عليهم .

وكانت الأمور تسير في الغرب في غير صالح التفاهم بين الدولتين الكبيرتين ، فقد تنصّر[٢] الإمبراطور الروماني قسطنطين (CONSTANTINE) (٢٧٤ ـ ٣٣٧) ،

---

(١) تذكر الرّوايات أن سابور ، وكان طفلاً ، أفاق مرة من نومه على ضجة كبيرة أمام قصره الملكي ، وعندما استفسر عنها قيل له : إن الناس تتزاحم على جسر على نهر دجلة مقابل القصر ، حيث يتقابل الناس في الذهاب والإياب . فأمر فوراً بإنشاء جسر جديد يخصص واحد للذهاب والآخر للإياب .

(٢) الرّوايات الدينية المسيحية تذكر أن قسطنطين تنصّر عندما أصدر مرسوم ميلان سنة (٣١٣ م) ، في حين لا يوجد في مصادرنا أكثر من عطف هذا الإمبراطور على المسيحيين وإعطائهم حقوقاً كان أباطرة روما قبله قد أنكروها عليهم .

وانتشر إثر ذلك الدين النّصراني في أرمينية بشكل لافت ، وعلى هذا توثّقت الصّلات بين روما وأرمينية ، ولم تعد الخلافات بين الدولة الساسانية وروما خلافات قومية فقط ، بل خلافات دينية أيضاً . وبعد أن اطمأنّ سابور على وضع مملكته الداخلي بدأ يبحث عن سبب أو ذريعة لإعلان الحرب ضدّ روما ، وقد وجدها في الخلافات التي استعرت بين الأريستقراطية الأرمنية ، والتي انقسمت بين مؤيّد لروما النّصرانية ومؤيّد للدولة السّاسانية . وخاض سابور حرباً في أرمينية استمرت اثنتي عشرة سنة (٣٣٨ ـ ٣٥٠) ، تركزت أكثر ما يكون في حصار مدينة نصيبين الرومانية دون أن يحقق أي من الطّرفين نتائج حاسمة ، وقد اضطر سابور إلى فكّ حصار نصيبين وإيقاف الحرب عندما ظهرت قبائل الهون ، وهي إحدى قبائل إقليم الصين الغربية ، على حدوده الشرقية . وبعد حرب طاحنة ضدّ قبائل الهون استمرّت سبع سنين (٣٥٠ ـ ٣٥٧) تلتها معاهدة صلح عاد إلى قتال الرومان بعد أن انضمّ بعض الهون إلى جيشه .

وكان سابور قد تلقى بعد انتهائه من حرب الهون رسالة من الإمبراطور الروماني كونستانس ، يعرض فيها صلحاً ، لكن سابور ردّ على الرسالة بجواب يورده لنا المؤرخ الروماني أميانوس ماركلينوس على النحو التالي : « من سابور ملك الملوك رفيق النجوم أخو الشمس والقمر إلى أخيه القيصر ، يبدو أن الإمبراطور أراد إصلاح خطئه والعودة إلى الطريق القويم . فقد كان أجداد سابور قد مدّوا نفوذهم إلى حدود مقدونية في أوربا ، ولما كان هو ، أي سابور ، يَفْضُل أجداده في الجلال والفضائل فعليه أن يستعيد أرمينية وبلاد الرافدين التي اغتصبت من جدّه بالحيلة ، وليس بالشجاعة . وإذا عاد سفرائي دون أن يحملوا موافقة الإمبراطور على هذا التنازل عن الأراضي المغتصبة ، فإن الملك العظيم سيسير بكل قواه لحرب الإمبراطور بعد استراحة الشتاء » . وردّ الإمبراطور كونستانس بجواب ذكره أميانوس على النحو التالي « من كونستانس المظفّر في الأرض والبحر ، والعظيم دائماً ، إلى أخيه الملك سابور ، أرفض عرضك رفضاً تامّاً مع لومي لك على الجشع الذي يتزايد على الدوام . وإذا كانت روما قد آثرت أحياناً

الحرب الدفاعية فإنه كان إيثاراً عن اعتدال وليس عن خوف ، وكانت معظم نتائج المعارك تسير في صالحها » .

وقد بدأ سابور الحرب سنة (٣٥٩) بهجوم على قلعة آمد ، وهي ديار بكر الحديثة ، واستولى عليها بصعوبة بالغة ، ولم يتمكّن الإمبراطور الروماني من الرّدّ على هذا العمل بالسرعة الكافية لانشغاله ببعض المشكلات الداخلية التي انتهت بوفاته سنة (٣٦١ م) واستلام جوليان منصب الإمبراطور ، الذي اصطحب في حربه ضدّ سابور عدداً من أدعياء العروش في طيسفون وأرمينية من الذين التجؤوا إلى روما . ولكن هذه الشخصيات لم تغيّر من واقع الأمور شيئاً ، إذ إنه بعد حصاره الفاشل للعاصمة الساسانية انسحب لتعقّب جيش ساساني آخر ، وأثناء انسحابه قتل بحربة جندي فارسي ، فانتخب الرومان أحد قادتهم ، وهو جوفيان (Jovian) ، إمبراطوراً ، فأصبح غاية مرامه سحب الجيش الروماني من منطقة دجلة ، ورحّب جداً بعقد هدنة لمدة ثلاثين عاماً ، وصلح تعهّد بمقتضاه الرومان بالتّخلي عن قلعة نصيبين ، وبإعادة منطقة أرمينية وبلاد الرافدين إلى الدولة الساسانية ، وبعدم التّدخل في أمور الدولة الساسانية وحليفاتها . ومنذ ذلك التاريخ بدأت المصادر الساسانية ، وحتى البيزنطية فيما بعد ، تطلق على سابور لقب « الكبير » .

وقد وجّه الرومان انتقادات شديدة لهذا الصلح . ولكن الإمبراطور جوفيان لم يتمكّن من تعديلها بالسياسة أو بالقوة العسكرية ؛ لأنه مات ، وتسلّم الحكم الإمبراطور فالنس (Valens) ، الذي حاول التّمرّد على بنود المعاهدة ، مما استتبع حرباً ثانية استغرقت حتى سنة (٣٧٦ م) حين تعب الطرفان ، وتداعيا إلى صلح يكفل لهما حدوداً هادئة ، وبعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ مات سابور الثاني سنة (٣٧٩ م) بعد حكم دام سبعين سنة ترك خلالها دولة قوية مهابة الحدود غنية الموارد .

خامساً ـ ملوك الدولة الساسانية من أردشير الثاني إلى قباد الأول (فترة الضعف الثانية) . وحكم خلالها ملوك ضعاف استمرت فترة حكمهم (٣٧٩ ـ ٥٤١) ، وهم على التوالي

١ ـ أردشير الثاني

جلس على عرش والده لمدة ثلاث سنوات (٣٧٩ ـ ٣٨٢) ، تذكر المصادر أنه كان ضعيف الشخصية ، طمع فيه عظماء الدولة وحاشيته ، الذين استعادوا في عهده ما فقدوه في أيام سابور ، ولكن أردشير مع ذلك كان طيّباً ومحبّاً للخير وساعياً له ، ولعل أبرز حوادث عهده هي إصداره مرسوماً بإلغاء جميع الضرائب المفروضة على الشعب ، لدرجة جعلت لقبه الشعبي[1] أردشير الخيّر . وعندما رغب في كبح جماح عظماء الدولة أقدموا على خلعه وتنصيب أخيه سابور .

٢ ـ سابور الثالث

تولى الحكم بعد خلع أخيه لمدة ست سنوات (٣٨٢ ـ ٣٨٨ م) . وكان ضعيفاً كأخيه استسلم لطموحات رجالات الحاشية ، وتمّ في عهده سنة (٣٨٤ م) الاتّفاق مع الرومان على تقسيم أرمينية دفعاً للنزاعات المستقبلية ، بعد أن أدرك الطرفان عجزهما عن حسم الخلافات لصالح أحدهما ، وقد قسمت أرمينية إلى قسمين شرقي كبير تحت السيادة الساسانية وغربي صغير تحت السيادة الرومانية ، علماً بأن الحكام المحليّين في كل من القسمين كانوا من الأمراء البارثيين . وعندما حاول سابور الثالث التّصدي لنفوذ عظماء

---

(١) دأب ملوك وزعماء العالم منذ القدم على اعتماد ألقاب رسمية لأنفسهم تختلف أحياناً عن الألقاب الشعبية التي يحب عامة الناس إطلاقها عليهم .

الدولة من النبلاء والأشراف ورجال الدين أقدموا على اغتيـالـه سنـة (٣٨٨ م) ونصَّبوا أخاه بهرام .

٣ - بهرام الرابع

تسلَّم العرش من عظماء الدولة وحكم إحدى عشرة سنـة (٣٨٨ ـ ٣٩٩ م) ، وعرف بلقب كرمان شاه ، أي ملك كرمان ؛ لأنه حِكم إقليم كرمان زمن والده سابور الثـاني ، وتعزو بعض المصادر تقسيم أرمينيـة إلى عهـده ، وإن كان من الثـابت أن رومـا افتعلت في عهـده بعض المشكلات في البـلاط الأرمني لصـالحهـا ، وأنـه أرسـل جيشـاً قمـع فيهـا التـدخل الرومـاني . وتختلف المصـادر في مقتـل بهرام الرابـع ، ففي حين تنسبهـا بعض الروايات إلى الاضطرابات التي حدثت في صفوف جيشـه ، تعزوهـا روايـات أخرى إلى رغبة عظماء الـدولـة في التَّخلص منـه بعـد نجـاحـه في السيطرة على أحـداث أرمينيـة . والجدير بالذكر أن عهد بهرام الرابع شهد انقسـام الإمبراطوريـة الرومـانيـة إلى قسمين ، فقـد أقـدم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (Theodosius) على تقسيم الإمبراطـوريـة إلى قسمين : الأول شرقي وعاصمته القسطنطينية (إستانبول) ، والثـاني غربي وعـاصمتـه روما .

٤ - يزدجرد الأول

تبوّأ العرش الساساني بعد مقتل والـده وحكم نحو عشرين سنـة (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م) ، واختلفت الروايات في رسم صورتـه في التـاريخ ، ففي حين تصفـه المصـادر الفـارسيـة والعربية بأنه كان شرّيراً قاسيـاً ، لـدرجـة أنهـا تطلق عليـه لقب بزه كار ، أي : الآثم ، أو دبهر يعني المخادع ، تصفه المصادر السّريانية والبيزنطية بأنـه كان طيبـاً رحيماً ، وأنـه كان يعطف على الفقراء . ويفسّر الطبري اتّهام الروايات الشرقية له بالقسوة والمخادعـة بكلام يورده الملك بهرام الخامس ابن يزدجرد نفسه حين يقول : إن والده عامل الناس

في بداية حكمه باللين ، وحاول نشر العدالة إلا أن الناس جحدت هذا اللين ، مما اضطر الملك إلى معاملتهم بالقسوة بعد ذلك .

وتذكر الروايات البيزنطية أن من ثمرات السلام الذي تمّ بين الدولتين البيزنطية والساسانية ، في عهد يزدجرد الأول ، أن طلب الإمبراطور البيزنطي آركاديوس (Arcadius) في وصيته من يزدجرد رعاية ابنه الطفل وحمايته من أعدائه في القسطنطينية ، خاصة في حال وفاته ، وقام يزدجرد بحماية الطفل ثيودوسيوس الثاني حتى شبَّ وأجلسه على عرش والده . ولبى طلب كبار رجال الدين النصراني بحماية نصارى إيران ، لدرجة أنه سمح في عهده سنة (٤١٠ م) بعقد مجمع كنسي في مدينة سلوقية دجلة بجانب المدائن ، ضمَّ رجال الدين النصارى في الدولة ، وافتتح المجمع بدعاء علني للملك الساساني ، وأوعز يزدجرد إلى ولاته بالمساعدة على تطبيق قرارات المجمع ، خاصة في مجال الحرية الدينية ، وبناء الكنائس . وفي هذا العمل تبرير كاف لموقف الروايات البيزنطية والسّريانية من هذا الملك المتعاون ، الذي تزوج بدوره من سيدة يهودية لإثبات بُعده عن التّعصب الديني .

على أنه على الرغم من الدوافع السياسية لهذه الأريحية الدينية ، فقد واجهت هذه الإجراءات مقاومة شديدة من رجال الدين الزرادشتي ، الذين ساءهم تراجع أهميتهم إلى المرتبة الثانية . وزاد الطين بلة أن بعض كبار رجال الدين النصارى غالوا في تحديهم للرأي العام في الدولة الساسانية ، لدرجة إقدام عدد منهم على تخريب بيوت النار ، وهي المعابد الزرادشتية ، دون خشية أحد مما اضطر الملك بعد تكرار هذه الحوادث إلى عكس إجراءاته التّسامحية والجنوح إلى سياسة معاقبة المخالفين لقواعد وشرائع الدين القومي للإيرانيين . وقد بلغت ذروة هذه السياسة بتعيين مهرنرسي في وظيفة كبير الوزراء ، وكان مشهوداً لهذه الشخصية بكراهيتها للدين النّصراني والمؤمنين به . ويبدو أن القدر لم يسمح ليزدجرد بالتّلذذ بهذه السياسة الانتقامية الجديدة ، إذ تذكر الروايات

موته سنة (٤٢١ م) ، ولكنها تختلف في أسبابه ، وفيما إذا كان مات نتيجة مؤامرة عظماء الدولة من النبلاء ورجال الدين ضدّ ملك معارض لهم ، أو أنها كانت نتيجة سقطة جواد كما ذكرت الروايات الرسمية .

٥ - بهرام الخامس

وكان ليزدجرد قبل مصرعه ثلاثة أبناء ، أكبرهم يدعى سابور ، وكان نائباً لوالده يحكم الجزء الساساني من أرمينية ، وثانيهما ويدعى بهرام ، وكان يزدجرد قد أرسله صغيراً إلى الإمارة العربية المتحالفة مع الساسانيين ، وهي إمارة الحيرة في عهد أميرها المنذر بن النعمان ، لتأديبه وتربيته ، وثالثهما ويدعى نرسي ، وأمه يهودية ، ويبدو أنه كان قاصراً عند وفاة والده ، وقد استعان به بهرام بعد توليه السلطة .

ويبدو أن عظماء إيران الذين تخلصوا من الملك الكريه يزدجرد أرادوا أن يحجبوا العرش عن كل أولاده ، فأقدموا على قتل ابنه الأكبر سابور إثر وصوله من أرمينية لتسلُّم العرش ، باعتباره أكبر أولاد الملك السابق . واختاروا أميراً من الأسرة الساسانية يدعى كسرى ، ونصّبوه ملكاً عليهم . على أن هذا الموقف لم يجد قبولاً عند الأمير بهرام ، الذي كفل له مضيفه النعمان قوة عسكرية أحسن إعدادها للمطالبة بعرش أبيه ، وتوجهت القوة العربية نحو المدائن التي لم تتمكن من التّصدي لهذه القوة ، واضطرت عظماء الدولة إلى مفاوضة الأمير بهرام والقبول بتنحية كسرى[١] وتنصيب بهرام ملكاً على الدولة الساسانية .

---

(١) ترددت في المصادر الإيرانية رواية عن عرض العظماء تأييدهم لأحد المتنافسين على العرش (الأمير كسرى) و (الأمير بهرام) ، شريطة تمكُّنه من الحصول على التاج الساساني الموضوع بين أسدين متقابلين . وتضيف بأن كسرى رفض دخول قاعة المباراة في حين قام بهرام بقتل الأسدين والتقاط التاج . وهي رواية يفسّرها المؤرّخون المعاصرون بأنها لفّقت لإخفاء حدث مخجل ، وهو عدم تمكُّن الدولة الساسانية من الوقوف في وجه قوة عربية صغيرة منظّمة استطاعت أن تفرض مرشّحها على العرش الساساني .

وتصف المصادر الملك الجديد بأنه كان محبوباً محارباً مغامراً ، فقد أحسن معاملة عامّة الناس ، وخفّض عنهم الضرائب ، وأبلى في حروبه ضدّ القوات البيزنطية على الحدود ، وكذلك ضدّ قبائل (الهياطلة)[1] ، وقد أُلّفت قصص كثيرة حول مغامراته النسائية ومخاطراته في أعمال الصيد ، لدرجة أنها أصبحت إحدى مواد وأشكال التّزيينات على رسوم الأواني والسّجاد الإيراني بصورة عامة . وقد أدى غرامه بالغناء والموسيقى أنه أحضر من الهند أعداداً كبيرة من الموسيقيين والمغنين لإمتاع عامة الناس حيث كان الموسيقيون يعزفون في السّاحات العامة .

وبدأ بهرام الخامس حكمه بالتّصدّي لخطر برابرة الشمال ، وقاد حملاته ضدّهم بنفسه ، وحقّق ضدّهم انتصارات باهرة ، في الوقت الذي كانت سياسة اضطهاد النصارى ، والتي أقرّها يزدجرد الأول ، وأوكل أمر تنفيذها إلى مهرنرسي ، تؤتي أُكلها في بداية عهد بهرام ، لدرجة أقنعت نصارى المنطقة الإيرانية بمغادرتها باتجاه أراضي الدولة البيزنطية . وقام المغادرون بتأليب الدولة البيزنطية للانتصار لدينها الرسمي ، وأدى ضغطهم إلى نشوب حرب قصيرة بين البيزنطيين والساسانيين تفوّق فيها البيزنطيون ، وعقدوا صلحاً سنة (٤٢٢ م) اعترف فيه بهرام من جديد بحرية العبادة والعقيدة في مملكته ، مما أدى إلى تأسيس كنيسة إيرانية جديدة طالبت سنة (٤٢٣ ـ ٤٢٤ م) بأن تكون مستقلة عن الكنيسة الغربية في القسطنطينية . وفي أواخر فترة حكم بهرام الخامس توفي أخوه نرسي الذي كان قد عيّنه حاكماً على أرمينية الساسانية ، ودبّت الفوضى في أرمينية كلها لصالح بيزنطة . وفي سنة (٤٣٨ ـ ٤٣٩ م) مات بهرام الخامس في إحدى رحلات صيده على الأغلب ، أو بشكل طبيعي على حدّ قول المؤرخ الفردوسي ليخلفه ابنه يزدجرد .

---

(١) مجموعات من سكان أواسط آسية ، أطلق عليهم البيزنطيون لقب (هيفتاليت) أو (الهون البيض) ، والمؤرّخون الإيرانيون لقب (الهياطلة) ، وهم من أشد الأقوام التي هاجمت الغرب قسوة ، وقد سبّب ظهورهم نحو سنة (٤٢٥ م) ذعراً كبيراً في الدولتين الساسانية والبيزنطية .

٦ ـ يزدجرد الثاني

تسلّم الحكم بعد والده ولكنه لم يكن يتحلى بصفاته ، ولهذا لا نجد ذكراً أو أهمية كبرى لعهده ، باستثناء اشتداد تعصُّبه للديانة الزّرادشتية ، وأوامره الصارمة ضدّ النصارى التي أرسلها إلى أمصار المملكة ، وخاصة أرمينية[1] التي هاله الانتشار الكبير للنصرانية هناك ، وبعد انتهائه من قتال برابرة الشرق والشمال وجد أن الاستجابة لأوامره بالعودة عن النصرانية لم تلق استجابة ، بل تمرُّداً ، وجه ضدّ أرمينية جيوشه التي تمكّنت من سحق المتمرّدين النّصارى وقتل معظمهم وسجن الآخرين ، وإعادة إعمار بيوت النار للعبادة الزّرادشتية ، ويبدو أن الوضع في بيزنطة كان ضعيفاً لدرجة أنه تمكن من إكراه الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس على ضرورة أن تساهم بيزنطة في دفع تكاليف حماية حدود الإمبراطوريتين ضدّ البرابرة ، وأجبره على توقيع اتّفاق مدّته (٦٠) سنة ، ولكن يزدجرد مات سنة (٤٥٧ م) ، بعد حكم دام نحو (١٨) سنة ، تسلّم الحكم بعده ابنه الأكبر هرمزد .

٧ ـ هرمزد الثالث

ويذكر الطبري أنه كان لهذا الملك أخ أصغر يحكم في سجستان يدعى فيروز (بيروز) ، طمع في العرش بعد وفاة والده ، وتوجّه بعد تولية أخيه هرمزد إلى العاصمة بجيش كبير بمساعدة أحد الأشراف ويدعى رهام (Raham) ، وخاض حرباً ضدّ

---

(١) تذكر الروايات الأرمنية والبيزنطية أعداداً كبيرة من الرسائل التي تبادلها رجال الدين من الزرادشتيين والنّصارى لإثبات أيهم كان يعتنق ديناً مقنعاً أكثر من الآخر ، وتتركز نقاط الجدل بينهم من وجهة نظر زرادشتية حول أن الخير والشّر في الحياة لا يمكن أن يكون من فعل مصدر واحد ، وأن الله لا يمكن أن يكون غيوراً ، وأنه لا يجوز الاعتقاد أنه من أجل ثمرة واحدة قطعتها حواء أوجد الله الموت ليعذب الناس . وأن إيمان النصارى بولادة المسيح من أم عذراء أمر لا يقبله عقل . وأن هناك تفاوتاً بين ما يدعو إليه رهبان النصارى وبين ما يمارسونه ، وخاصة في مجال علاقتهم بالزواج والمأكل والزهد الشديد وعدم اكتراثهم بالحياة .

أخيه لمدة سنتين ، كانت أمها خلالها تحكم في العاصمة منفردة ، وعندما انتهت الحرب لصالح فيروز قتل هرمزد بإيعاز من رهام ، وتنازلت الأم عن الحكم لصالح ابنها فيروز .

٨ ـ فيروز الأول

وعلى الرغم من طول مدة حكمه التي استغرقت الفترة من (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م) إلا أن عهده لم يتميز بأحداث سياسية أو حضارية هامة . ولعل أهم هذه الأحداث أن البرابرة من الكداريين ، بوجه خاص ، كانوا يتربصون بالدولة ، ويعتدون على حدودها دون خوف[١] ، وساهم قحط طويل وانحباس الأمطار في معظم أراضي المملكة في إضافة مصاعب اقتصادية واجتماعية للدولة ، ومع أن فيروز أراد التّخفيف عن الشعب بإعفائه من الضرائب وإعادة توزيع الغلال بين المناطق ، إلا أن هذه الإجراءات لم تؤدّ إلى تحسين الموقف إلا بعد هطول الأمطار ، الأمر الذي دعا فيروز إلى إعادة الاحتفال بعيد قديم جداً من أعياد الفرس هو عيد المطر[٢] (آب ريزكان) .

وكان العالم المسيحي في تلك الفترة يعاني من مشكلة عقائدية دينية كبيرة حول طبيعة المسيح ، وانقسم هذا العالم نتيجة هذا الخلاف إلى قسمين : الأول ويدعون (النّساطرة) ، ويقولون : إن للمسيح طبيعتين متميّزتين ؛ إحداهما (ناسوتية = إنسانية) ، وثانيهما (لاهوتية = إلهية) . والثاني ويدعون (اليعاقبة) ، ويقولون : إن للمسيح طبيعةواحدة (مونوفيزيت) إنسانية وإلهية في آن واحد ، ووصل الخلاف

(١) تذكر الروايات أن فيروز حاول مصاهرة ملك الكداريين البرابرة المدعو كنجخاس (Kungkhas) لثنيه عن مهاجمة الحدود بتزويجه من أخته ، ولكنه أرسل إليه جارية من جواريه ، مما أدى إلى تعاظم نقمة البرابرة ضدّ فيروز .

(٢) يذكر المؤرّخ الكرديزي في كتابه (زين الأخبار) أن فيروز اعتكف في أحد بيوت النار وتعبّد كثيراً ، وقدّم صدقات للفقراء ، وتضرّع إلى الآلهة التي استجابت وأطلقت الأمطار من عقالها على مملكة فيروز جد كسرى أنوشروان .

بين الفرقتين إلى أشدّه ، بل انقسمت عنهم فرق بعضها مغال والآخر توفيقي . وكان نصارى إيران يتبعون كنيسة الرّها ، التي تدين بدورها بالعقيدة النّسطورية ذات الطبيعتين . وقد أدرك فيروز الأهمية السياسية التي تكمن وراء دعم النّساطرة ، الذين كانوا يختلفون عن كنيسة القسطنطينية المونوفيزيقية اليعقوبية ، فقد كان من شأن ذلك أن يبعد نصارى إيران عن نصارى دولة الأعداء ، وقام فعلاً بدعم النّساطرة .

وعندما اشتدّ أذى قبائل الهياطلة على الحدود ، قرر فيروز التّصدّي لهم ، ولكنه هزم في أول معاركه ، وأسر واضطر لدفع فدية كبيرة ، ورهن ابنه (قباذ) لحين سدادها . ولم يتّعظ من هذه الهزيمة بل سرعان ما عاود حرب الهياطلة بعد افتداء ابنه ، ودفع حياته سنة (٤٨٤ م) ثمناً لهذه المغامرة ، التي حاول عدد من قادته ثنيه عن الإقدام عليها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الدولة الساسانية خاضعة بشكل غير مباشر لأوامر ملوك الهياطلة .

٩ ـ بلاش

وقع اختيار عظماء إيران بعد مقتل فيروز على أخيه الأصغر المدعو بلاش ، وكان القائد زر مهر الحاكم الفعلي في الدولة في عهد هذا الملك الذي استمر من (٤٨٤ ـ ٤٨٧ م) . وكانت أول مهام الملك الجديد محاولة بعث جيش جديد قبل بدء المفاوضات مع الهياطلة الذين طالبوا بجزية سنوية مقابل إعادة الأسرى والغنائم . وقد تخيلت الروايات الإيرانية حرباً انتقامية مزعومة قام بها القائد زر مهر على الهياطلة ، وانتهت بهذا الصّلح المشرف لدولتهم .

وكان الملك الجديد كما تظهر الروايات ميالاً للإصلاح عطوفاً على الفقراء ، تشترك الروايات السّريانية مع السّاسانية في مدحه ، ويبدو أن هذه الصفات لم ترض عظماء الدولة الذين انضووا تحت لواء زر مهر ، وطالبوا بإقصاء الملك المصلح الضعيف ، ونفذ زر مهر هذه الرغبة ، فأقصى بلاش ، وعيّن بدلاً عنه قباد ابن الملك فيروز .

١٠ ـ قباد الأول

وكان عظماء الدولة يرغبون من تعيين قباد ملكاً عليهم لإرضاء الهياطلة ، فقد كان قباد رهينة في بلاطهم نحو سنتين ، وقد توطدت علاقاته بهذا البلاط على نحو توقع العظماء معه تحسُّناً ما في علاقاتهم مع الهياطلة ، ومع أن هذا التَّحسُّن ظهر للعيان فعلاً إلا أن الدولة استمرت في دفع الجزية إلى الهياطلة فترة طويلة ، استمرت حتى زمن كسرى أنوشروان . يضاف إلى ذلك أن قباد كان قد حاول الاستيلاء على الحكم عندما تولى بلاش السلطة ، ولكنه فشل مما اضطره إلى الهروب إلى كنفخاس ملك الهياطلة الذي استقبله باعتباره معرفة ملكية قديمة ، ولإمكانية الاستفادة منه فيما بعد . وعندما عزل بلاش كان المرشح الأوحد للعرش الساساني هو قباد حليف الهياطلة . وقد استمرّ زرمهر في سنوات حكم قباد الأولى الرجل الأول بين عظماء الدولة ، فهو الذي ينحي الملوك ، وهو الذي يقبل بتعيينهم . ويبدو أن شخصية قباد لم تكن تقبل وجود شخصية بجانبه بمثل هذه القوة والطموح ، ولما لم يكن بإمكانه مواجهة زرمهر ، فقد أقدم على تبني ودعم أحد العظماء الآخرين ويدعى سابور مهران ، الذي كان خصماً ونداً عظيماً ، فعيَّنه قباد قائداً « إيران سباهيد » لجيشه ، وساعده على التّخلُّص من زرمهر بقتله ، ولا يعرف السبب الذي لم يظهر فيه سابور مهران في الصورة السياسية للدولة بعد هذا التاريخ ، ويفترض بعض المهتمين أنه لم يعش طويلاً بعد مقتل خصمه .

وقد أشعل مقتل زرمهر ، وهو زعيم للأريستقراطية المحلية ، غضب هذه العناصر ، وألبت ضدّ الملك عداوات خطيرة . على أن أبرز ما ساهم في تعاظم النقمة ضدّه إلى درجة خطيرة هو تأييده لفرقة دينية اجتماعية رهيبة ظهرت في عهده دعت إلى مشاعية النساء والأموال ، باعتبارهما أهم الأسباب التي يتقاتل من أجلهما الرجال فرادى وجماعات ، وهي فرقة المزدكية ، ويبدو أن تأييد قباد لهذه الدعوة الجديدة كان بهدف مساعدته للحدّ من نفوذ النبلاء ورجال الدين ، خاصة بعد التّخلُّص من زعيمهم زرمهر .

ولكن هذا التّأييد لم يظهر ساعة الشّدة ، إذ عندما تـآمر ضـدّه نبلاء القصر تمكّنوا منه وأودعوه السّجن ، ونصّبوا بدلاً عنه أخوه المدعو جـامـاسب ، ولكن قبـاد لم يستطع الصبر على سجنه طويلاً ، وتـذكر المصـادر أنـه تمكن من الهروب من سجنـه بمسـاعـدة زوجـه وأحـد أصـدقـائـه من النبلاء المـدعو سيـاوش . ويبـدو أن الهرب كان أقرب إلى الاستحـالـة ، لـدرجـة أنـه أصبح موضوعـاً للقصص الأسطـوريـة الإيرانيـة فيما بعـد ، وأقحمت عليه إضافات لاحقة تخرج بها كثيراً عن الواقع . ومع ذلك تذكر الروايات أن قباد هرب مع صديقه سياوش إلى الهياطلة ، حيث استقبلـه ملكهم بترحـاب شـديـد ، وزوّجه ابنته التي كانت أمها بدورها ابنة الملك فيروز . وأمر له بجيش لاستعـادة ملكـه بعد أن تعهّد له قباد بزيادة الجزية التي كانت تدفعها الدولة الساسانيـة لـه مقـابل هـذه المساعدة . وتمكن الملـك الطريـد نحو سنـة (٤٩٨ م) من دخول عـاصمـة ملكـه بشكل سلمي ، حيث تختلف الروايات هنا في معاملة قباد لأخيه جاماسب ، وفيما إذا كان قتله أو نفاه أو سجنـه . ولكنـه في المقـابل أعـدم أخطر أعـدائـه من عظماء إيران وعفـا عن بقيتهم . وعيّن سياوش في منصب وزير الحربية في الدولة .

وقد مرّت حوادث الحرب بين قباد وبيزنطة بمرحلتين :

بدأت الأولى حينما اضطرت ظروف دفع الجزيـة إلى الهيـاطلـة وفراغ الخزينـة إلى مطالبة قباد القسطنطينية بدفع المستحقّات التي كانت قد تعهّـدت بـدفعهـا إلى الـدولـة الساسانية ، مساهمة في دفع خطر البرابرة عن حدود الإمبراطوريتين ، وذلك منـذ عهـد يزدجر الثـاني . وذكر قبـاد لـلإمبراطـور أنستـاسيـوس (Anastassius) أنـه مضطر للحصـول على المبلـغ لـدفـع الجـزيـة إلى الهيـاطلـة ، ولكن بيزنطـة التي اعتقـدت أنهـا لوتأخرت أو رفضت الدفع فإن علاقات قباد بالهيـاطلـة ستسير إلى أسوأ . ولهـذا رفض الإمبراطـور دفـع المستحقّـات المتـأخّرة ، فقـام قبـاد بتسيير جيش تمكّن من تحقيـق انتصارات هامة على البيزنطيين بمساعدة عدد من فرق الهياطلـة أنفسهم . ولكن ذلـك لم يمنـع من تعرُّض حـدود الـدولـة الشرقيـة والشماليـة ، منطقـة بحر قـزوين ، لغـزوات

مجموعات أخرى من البرابرة الذين اضطروه نحو سنة (٥٠٦ م) إلى عقد هدنة مع البيزنطيين مدتها سبع سنوات بعد أن تعهّدت له بيزنطة بالمساهمة في دفع تكاليف صدّ البرابرة الشماليين . ولكن قباد بعد نجاحه في صدّ البرابرة من جديد تحوّل لمهاجمة بيزنطة التي كانت تغذي الفتن في أرمينية الساسانية . وقد جرت في إقليم سورية الشمالية وجنوب آسية الصغرى عدد من المعارك تعاقبت فيها الانتصارات والهزائم بين الفريقين ، ولم تتوقف إلا بعد أن تناهى إلى قادة الجيشين موت قباد سنة (٥٣١ م) ، فعادت الجيوش الإيرانية باتّجاه عاصمتها لتبين الموقف بعد وفاة الملك .

وكان قباد في الثمانين من عمره عندما توفي عن ثلاثة أبناء ، أكبرهم كاووس وكان مزدكي الهوى ، وأوسطهم زام وكان قد فقَدَ عينه في صغره ، وكان هذا العيب يؤدي إلى حرمان الأمير من فرصته في تولّي الملك ، وأصغرهم كسرى وكان على خلق متين وعلى علاقة طيبة بوالده الذي رغب في تقديمه على أخويه لمنصب الملك ، ولهذا طلب من كبير قادته سياوش مفاوضة الإمبراطور البيزنطي جستين (Justin) لتبنّي كسرى ودعمه للوصول إلى عرش الدولة في مواجهة أخويه ، ولما فشل سياوش في مفاوضاته اتّهمه قباد بالخيانة[1] وأعدمه . وبدأ يعدّ العدّة لحرب بيزنطة ، ولكي يضمن الجبهة الداخلية لصالح ابنه الأصغر ، عقد مناظرة بين المزدكيين والزّرادشتيين الذين كان يعضدهم النصارى ، وبإيعاز من الملك هاجم الأمير كسرى المزدكيين المجتمعين في المناظرة ، وأعمل فيهم القتل ، ولم ينجُ منهم أحد . وعندما أباح دماءهم بين الشعب لم يستطع عامةُ الناس من المزدكيين مقاومة أعدائهم ، فقتلوا واستبيحت ممتلكاتهم وأحرقت كتبهم الدينية ، ولم تقم للمزدكية أي قائمة بعد هذا التاريخ ، التي تحوّلت في الهضبة الإيرانية إلى حركة سرّية حتى الفتح الإسلامي ، وانتقال مركز السلطة الإسلامية إلى بغداد .

---

(١) تذكر بعض الروايات أن سياوش كان مزدكي الهوى ، وأنه كان يؤيّد ابن قباد الأكبر ، وأنه لهذا السبب أفشل المفاوضات مع البيزنطيين .

وقبل وفاته بقليل أملى قباد وصيّته على كبير وزرائه المدعو ماهبود ، الذي دعم رغبة الملك في تولّي ابنه كسرى العرش من بعده ، وناصره ضدّ تحرُّك كاووس ، الذي قتل إثر معركة دموية تسلّم بعدها كسرى العرش دون معارضة تذكر .

سادساً ـ كسرى أنو شروان

يعدُّ عصر كسرى الأول الملقّب أنوشروان (أنوشة روان) ، وتعني الروح الخالدة ، أزهى فترات الدولة الساسانية بعد فترة انحطاط مريرة ، فقد كانت الدولة منهكة في الخارج ، بسبب تكاثر الأعداء ، وضعف الملوك ، ومنازعاتهم مع أولياء عهودهم وأدعياء العروش ، ومفككة من الداخل بسبب أعمال المزدكيين ، التي كرّست عداء العامّة للخاصّة ، وتوجس الخاصّة من العامّة .

١ ـ إصلاحات كسرى الاجتماعية

وبدأ كسرى إصلاحاته بالإعلان عنها في كتب أرسلها لولاة الأقاليم مركزاً على هيبة السلطة المركزية ، وعدم السماح لأحد بالانتقاص منها . وباشر بعد ذلك القضاء على الفوضى الاجتماعية التي أحدثها المزدكيون ، فردَّ الأموال الثابتة والمنقولة إلى أصحابها ، وحوّل الأموال التي لا وارث لها إلى خزانة الدولة لإصلاح المفاسد . وانتصف للنّساء المغتصبات من مغتصبيهنّ ، إما بالزّواج المصحوب بالمهر المناسب ، إن كانت المرأة من طبقة المغتصب ولم تكن قد تزوجت ، أما إذا كانت متزوجة فتردّ إلى زوجها إذا كان يريدها . وإما بالطلاق إذا لم ترغب بالاستمرار مع غاصبها ، ويعاقب الغاصب في هذه الحالة بغرامة أو بالسجن . وألحق كل المواليد المختلف في أنسابهم بالقصر الملكي الذي تكلّف بأمور رعايتهم .

٢ ـ إصلاحات كسرى المالية

أما في مجال الحياة العامة ، فقد أمر كسرى بإعادة إعمار المساكن والقرى والتّرع والجسور والأقنية التي عجز ملاكها عن صيانتها خلال فوضى أتباع مزدك ، وأمدّ

الفلاحين بالمواشي والبذار ، وحصّن مراكز الحدود ، وأصلح نظام الضرائب العقارية والشخصية التي كانت في معظمها ضرائب التزام ، فبعد أن كان الفلاحون لا يجرؤون على لمس ثمارهم قبل دفع الضريبة عليها ، مسحت الأراضي بدقة ، وفرضت ضرائب معقولة محددة عن كل محصول على حدة ، وأعفيت المحصولات التي لم تكن تشكّل إنتاجاً زراعيّاً كبيراً ، خاصة الحدائق الصغيرة ، كما أعفى من الضريبة العقارية من تلفت أشجاره أو زراعته . أما في مجال الضرائب الشخصية ، فبعد أن كانت مفروضة على كل المواطنين أصبحت تفرض على العاملين منهم ممن تتراوح أعمارهم بين (٢٠ ـ ٥٠) سنة فقط ، واستثنى من دفع الضريبة عظماء المملكة . وتراوحت الضرائب الشخصية بين (١٢ درهماً سنوياً) على الفرد الغني ، و (٨ دراهم سنوية) على الفرد المتوسط الحال ، و (٦ دراهم سنوية) على المعتدل الحال ، و (٤ دراهم سنوية) على الفقراء الذين شكّلوا معظم المواطنين ، وأمر بإعفاء المرضى والعاجزين من دفع هذه الضرائب الشخصية . وأرسل نسخاً من هذا النظام الضريبي الجديد إلى حكام الولايات للالتزام بها .

٣ ـ إصلاحات كسرى الحربية

أما في المجال الحربي ، فقد اتّبع كسرى إصلاحاً حربياً جديداً ، فأجرى رواتب للنبلاء الفقراء الذين لم تكن ظروفهم المالية تسمح لهم بالإنفاق على تجهيزاتهم العسكرية ، كما تفترض الأعراف الحربية الإقطاعية السائدة ، وكانت هذه التجهيزات تتكون من الدروع ، والسيف والرمح ، والقوس والنّشاب ، وكانت لهذه التجهيزات تكلفة باهظة ، تضاف إليها تكلفة الخيول إذا كان النبيل من الأساورة (الفرسان) ، الذين كانوا يحيطون بالملك أثناء المعارك ، ويشكّلون مجلس بلاطه في حالات السّلم ، على أن أبرز إنجازاته العسكرية التكتيكية كان في إسكان عدد من الأقوام الرحل في مستعمرات حدودية ومراكز حاميات ، وخاصة في الشمال والشرق التي كان يتوقع الخطر منها أكثر من غيره ، وذلك بعد إمدادهم بما يكفي حياتهم بشكل لائق . وألغى

أنوشروان منصب إيران سباهيد ، وهو قائد الجيش الإيراني ، واستبدله بأربع قادة ، عهد إلى كل واحد منهم بولاية كبرى ، تشكل مركزاً لقواته وهي : خراسان والرافدين وأذربيجان واليمن وكان كل واحد من هؤلاء القادة يرأس الولايات الرئيسة الأصغر ، القريبة من مركز قيادته . وبهذا أعطى أنوشروان لدولته طابع حكم عسكري .

٤ ـ الأحداث العسكرية والسياسية

ولا شك أن الجهد الذي بذله كسرى في تدعيم دولته مدنيّاً وعسكريّاً كان مبرراً برغبة الملك الجديد في القضاء على خطر الهياطلة أولاً ، نظراً لموقف الملوك السابقين تجاههم ، واضطرارهم إلى دفع الجزيات ، ومن ناحية أخرى صحيح أن السلم مع بيزنطة قد استتب منذ السنة الثانية لحكم كسرى سنة (٥٣٢ م) بموجب معاهدة بين الإمبراطور جستنيان (Justinian) ، الذي كان مشغولاً بحملاته في إفريقية وإيطالية وبين أحد قادة كسرى ، تعهّدت بيزنطة بموجبها أن تدفع جزية سنوية للفرس مقابل ضمان حدودها الشرقية ضدّ البرابرة ، وأن تستبقي الدّولتان ما في حوزة كل منهما من الأراضي قبل قيام الحرب مع بيزنطة ، فقد كان النّزاع متوقّعاً باستمرار ، خاصة أنه كان يدور في فلك الدولتين إمارات صغرى ، كان الخلاف بينها يمهّد عادة لحروب بين الدّولتين الكبيرتين . وهذا ما حصل فعلاً نحو سنة (٥٣٩ م) ، حينما نشب نزاع بين الملك الغساني الحارث بن جبلة وملك الحيرة المنذر بن النعمان . وتدخل الإمبراطور جستينيان لفضّ النّزاع دون العودة إلى كسرى الذي وجد في هذا التّدخل ذريعة للحرب . وعبر نهر دجلة بجيش كبير ، وهاجم بلاد الرافدين ، ثم عبر الفرات ، واستولى على مدينة أنطاكية سنة (٥٤٠ م) ، وكانت أهم عاصمة من عواصم الإمبراطورية البيزنطية في سورية . ولم يتمكن جوستنيان من صدّ جيوش كسرى ، واضطر إلى عقد الصّلح معه سنة (٥٤٥ م) مقابل غرامة حرب كبيرة ، إضافة إلى مساهمتها في تكاليف الجهود الفارسية لحماية حدود الدولتين الشرقية ضدّ البرابرة . وهو الصلح الذي لم يستمر

طويلاً بعد أن نشب نزاع بين الزّرادشتيين والنّصارى في منطقة القوقاز[١] ، وتدخلت قوات الطرفين دون أن تحرز أيٌّ منهما نصراً حاسماً ، واضطرت الدّولتان مرة أخرى إلى توقيع صلح سنة (٥٦٢ م) مدته خمسون سنة اقتسمت فيه الدّولتان المنافع الاقتصادية والاستراتيجية والدينية في المنطقة .

وبعد تفرّغه من حرب بيزنطة وضمان حدوده الشمالية والغربية امتنع كسرى عن أداء الجزية للهياطلة ، وشنّ ضدّهم حملة زجّ فيها بكل قواته بعد أن تحالف مع إحدى القبائل التركية المجاورة للهياطلة . ولا يعلم الكثير عن سير العمليات الحربية ضدّ الهياطلة ، ولكننا نعرف أن ملك الهياطلة قتل خلال المعارك ، وأصبح نهر جيحون[٢] (Jayhun) يشكّل الحدود الشمالية الشرقية للدولة الساسانية . ولتدعيم هذه الفتوحات فقد أقدم كسرى على الزواج من ابنة خاقان الترك (مكان خان)[٣] .

وفي تلك الفترة هاجم الأحباش النصارى اليمن ، وقضوا على ملوك حمير ، وأسّسوا سلالة حاكمة بتأييد من بيزنطة ، وشرعوا في نشر الدين النّصراني ، وأقاموا عدداً من الكنائس أشهرها في صنعاء ، وقد هرب أحد أمراء حمير إلى كسرى ، وطلب منه معونته لاسترداد عرشه . وقد أمدّه أنوشروان بجيش رأسه القائد (وهرز = وهريز) الذي تمكن من استعادة حكم اليمن لصالح ملوك حمير سنة (٥٧٠ م) . ولم يعد هذا الجيش إلى إيران بل بقي في اليمن ، واختلط بسكّانها ، وأطلق عليهم المسلمون فيما بعد لقب الأبناء تمييزاً لهم عن اليمنيين الأصليين .

---

(١) القوقاز أو القفقاس هو الإقليم الذي يقع بين بحر قزوين شرقاً والبحر الأسود غرباً .

(٢) أحد أنهار شرق الهضبة الإيرانية يعرف باسم نهر أوكسوس (Oxus) ، ينبع من منطقة طخارستان شمال كشمير ، ويصبّ شمالاً في بحر آرال .

(٣) مجموعة من قبائل الهون البيض هربت بضغط من إمبراطور الصين إلى الشرق ، وأنشأت سلالات حاكمة في مناطق الشرق الإيراني وشمال الهند ، وقد أطلق عليهم لقب تورك لأول مرة ، وهو على اسم أحد الجبال الشبيه بقبعة الأتراك التي تدعى (Durk) .

وفي تلك الأثناء تمادى الأتراك في طلباتهم من بلاط أنوشروان ، فسيَّر نحوهم جيشاً لم يتمكَّنوا من صدِّه ، ولكنهم رداً على ذلك عقدوا محالفة مع البيزنطيين وشجَّعوهم على نقض صلحهم مع الساسانيين ، وقد راهن الإمبراطور البيزنطي جوستين الثاني على أن أنوشروان ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، لن يتمكَّن من قيادة جيشه بالكفاءة التي كانت له في السابق نفسها ، فحرَّك قوّاته التي دخلت أرمينية وشمال سورية ، لكنها سرعان ما أخلتها عندما شاهدت جيوش أنوشروان بقيادته على أطراف أنطاكية . ثم في سهول أرمينية نفسها ، ملحقة بقوات بيزنطة مجموعة من الهزائم المتكررة ، مما أكره جوستين على عقد الصلح الذي لم يهنأ به أنوشروان طويلاً ، إذ إنه ما إن عاد إلى عاصمته طيسفون حتى أدركه الموت سنة (٥٧٩ م) ، وتسلَّم الحكم ابنه (هرمزد) .

٥ ـ شخصية أنو شروان

تجمع الروايات الفارسية والعربية والبيزنطية على عظمة أنوشروان في المجال الحربي ، وحكمته في المجال المدني ، وسياسته في المجال الإداري ، ففي عهده فقط تتالت هزائم أباطرة بيزنطة في سورية وأرمينية واليمن ، وتمّ لإيران الساسانية ردع الأتراك والهياطلة باستمرار ، وتمكَّنت من القضاء على ثورات أتراك الخزر والقبائل المشاكسة في الشرق والشمال . وقد أدت الإصلاحات الداخلية التي اعتمدها أنوشروان بعد قضائه على فوضى مزدك وأتباعه إلى تلاحم الطبقات الإيرانية ، ونفخت فيها هذه الإصلاحات روحاً جديدةً كانت أشبه بالانتفاضة الأخيرة قبل اندثار هذه الإمبراطورية على أيدي العرب المسلمين بعد نحو قرن من الزمن .

على أن أبرز المعلومات والمأثورات عن هذا الملك في الكمّ والنوع تلك التي تتحدّث عن عدله ويقظته وحنكته . وقد أفاض الكتاب الفرس وعنهم العرب في ذكر الحكايات الحقيقية أو المبالغ فيها أو المختلقة عن شخصية هذا الحاكم ، ومنها التي أوردها

نظام الملك في (سياسة نامة) حول دعوة كسرى جميع ولاته في بداية حكمه إلى العدل والتّعفُّف ، والرحمة والإنصاف . على أن والي أذربيجان ، وعلى الرغم من ثرائه الشديد ، اغتصب كوخاً من سيدة عجوز ؛ لأنه أراد بناء قصر في منطقة الكوخ دون أن يقوم بتعويضها . وترصّدت العجوز إحدى رحلات الملك للصيد ، واشتكت له أمرها ، فأرسل أعوانه إلى أذربيجان لتحرّي الحقيقة ، وعندما تأكد من صدق العجوز أمر بقتل الوالي وسلخ جلده وملئه بالقشّ ، وتعليقه على باب القصر الملكي ، وأن يعلن للجميع أن من يرتكب عملاً ظالماً يلقى عقوبة مماثلة .

ومنها التي ذكرها المسعودي في (المروج) ، ومفادها أنه عندما زار سفير قيصر الروم قصر كسرى ، ووجد الإيوان على شكل مربع معوج سأل عن سبب هذا الاعوجاج ، ذكروا له أن عجوزاً لها منزل في الجانب المعوج ، وأنها رفضت أن تبيع منزلها إلى الملك ، مما أدى إلى هذا الاعوجاج ، فقال رسول القيصر : إنني أرى أن الاعوجاج هنا أحسن من الاستواء .

ومنها التي ذكرها نظام الملك أيضاً من أن الملك أمر أن يوضع على بوابة قصره في العاصمة سلسلة تؤدي إلى جرس في داخل القصر ، يتمكن عن طريقها أصحاب المظالم إبلاغ الملك تظلُّماتهم ، وذلك بقرع الجرس عن طريق سحب السلسلة من على بوابة القصر . ولفترة تجاوزت سبع سنوات لم يقرع الجرس ، وكان سرور أنوشروان عظيماً ، لأنه عرف أن العدل والأمن مستتبّان ، ولكن وبعد فترة وجيزة قرع الجرس ، وعندما أمر كسرى بإدخال صاحب الظلامة تبين أنه حمار أجرب كان يحكّ جسمه بالسلسلة مما أدى إلى قرع الجرس ، فأمر كسرى بالبحث عن صاحبه ، وأمره بالعناية بهذا الحيوان .

وفي مقابل هذه الصور الطيبة في الروايات الفارسية والعربية ، وفي مقابل ما ذكرته المصادر الإيرانية عن قيام كسرى بتخفيف عقوبات جرائم القتل ، والرّدة عن

الدين ، والخيانة العظمى ، والسّرقات وغيرها ، إلى عقوبات أدنى من القتل والسّلخ وبتر الأعضاء الحساسة في جسم الإنسان ، فإن بعض الحالات على ما يبدو كانت تشهد عقوبات فظيعة في زمن كسرى ، خاصة عقوبات (الخازوق) و (السّلخ) و (بتر الأعضاء التي لا تسمح للمُعاقب بممارسة حياته العملية بعد ذلك) ، وهي عقوبات تذكرها وتبالغ فيها روايات المؤرّخين النّصارى ، وخاصة (بروكوبيوس) ، التي لا تعتبر كتاباته دائماً شهادات عادلة في حقّ عدو الدولة البيزنطية الأوحد في تلك الفترة .

ويفسّر بروكوبيوس أحياناً النزعة الإصلاحية عند كسرى بأنها قسوة مبالغ فيها ، كما يصفه بالمراءاة والمكر والمكيافيلية ، ويذكر حادثة لإثبات ذلك ، من أن كسرى عندما رغب بالسلام مع خاقان الأتراك اتّفقا على تبادل مصاهرة سياسية ، وخطب ابنة الخاقان ، في حين أرسل إلى الخاقان أمةً نبذتها زوجته على أنها ابنة كسرى ، وعندما التقيا مرة للمصارحة ، أمر كسرى جماعة من حرّاسه ليلاً بإشعال النار في معسكر الأتراك ، وادّعى بعدم معرفة الفاعل عندما سأله الخاقان عن ذلك . وتكرر الحادث عدة ليال ، وفي ليلة تالية أمر أنوشروان جماعته بإحداث حريق في معسكر أنوشروان نفسه ، واشتكى إلى الخاقان مدّعياً بأن الأتراك مسؤولون عن إحراق معسكره ، وعندما أقسم الملك التركي بعدم مسؤوليته قال أنوشروان إن خير وسيلة هي بناء سور يمنع تعديات أي من الطرفين على الآخر .. وهكذا حقّق أنوشروان ما هدف إليه ولكن بالحيلة ..! ويضيف المؤرّخون البيزنطيون إلى الروايات عن قسوة وفظاظة كسرى من أنه قتل أخاه عندما رغب في العرش ، وأنه قتل أحد مستشاريه عندما تجرّأ ونقد إحدى الإجراءات المالية الملكية ، وأنه قتل أحد ولاته عندما ساعد متمرّداً هرب من العاصمة ، إلى آخر ما هنالك من قصص وروايات .

سابعاً ـ عصر الثورات الداخلية

وهو العصر الذي شهد لأول مرة في تاريخ الدولة ثورات الأرستقراطية الإيرانية ضد الملوك الساسانيين ، وبروز أدعياء العرش ، وتأييد عامة الشعب لهم في دعواهم ، الأمر الذي مهّد السبيل لعصر من الفوضى انتهى بفتح المسلمين أراضي الهضبة الإيرانية .

١ ـ هرمزد الرابع

خلف والده كسرى سنة (٥٧٩ م) ، واختلفت الروايات في تقدير هذا الملك وتباينت بين مدح وذمّ ، ففي حين تذكره الروايات العربية[١] بأنه كان عادلاً ، لدرجة أنه استحقّ هذا اللقب أكثر من أبيه ، وأنه كان كثير العطف على الضعفاء والمظلومين ، وأنه كان ذكيّاً وأديباً ومحسناً ، وأن عدالته كانت تطال الجميع بمن فيهم كرام القوم . فإن روايات أخرى فارسية وبيزنطية تأخذ عليه قتله عدداً كبيراً من العلماء والأشراف ، بلغ نحو أربعة عشر ألف رجل ، في حين تذكر روايات نصرانية أنه قام بحماية النّصارى في مملكته ، ويبدو أن هرمزد كان يتبع سياسة والده ، ولكن بحيطة أقل ، فقد أدى تسامحه مع نصارى مملكته إلى نقمة رجال الدين الزّرادشتيين ومساعدتهم في الاضطرابات التي أدَّت إلى سقوطه فيما بعد .

وعندما تسلّم هرمزد العرش كانت المفاوضات بين الدولتين الساسانية والبيزنطية على أشدّها ، وتمسّك كل من الشّاهنشاه والإمبراطور بموقفيهما حتى انهارت هذه المفاوضات ، وأراد خاقان الأتراك أن يستفيد من هذا الوضع الذي أدى إلى انشغال الجيش الفارسي في التّحضير للحرب ضدّ بيزنطة ، فتحرّكت قواته في التّركستان باتّجاه

(١) يتّفق على هذا كلٌّ من البلعمي والطبري نقلاً عن هشام بن محمد .

الغرب ، وأحرزت عدداً من الانتصارات ، حتى تمكّن أحد القادة الفرس ، ويدعى بهرام ولقبه جوبين من أسرة مهران الإقطاعية الشهيرة ، أن يهزم الخاقان ويغنم منه غنائم كثيرة ، ويضطر الأتراك لأول مرة إلى دفع جزية للملك الساساني ، ولكن هذا النصر أصبح بداية لخلاف متوقّع بين بهرام القائد المحبوب نتيجة انتصاراته وبين الملك الذي رغب في تكليف بهرام بالتّصدي للقوات البيزنطية على الحدود الغربية . ويبدو أن استعدادات بهرام كانت ضعيفة ، أو أن ثقته الزائدة بنفسه أو قوة الجيش البيزنطي أدت إلى هزيمة الجيش الساساني هزيمة منكرة ، وبالتالي إلى عزل بهرام عن قيادة الجيش بطريقة مهينة[١] ، مما أدى إلى حقد بهرام وانتظاره الفرصة السانحة للرّد على إهانة الملك بتأييد من جنوده . وفي تلك الأثناء كان الملك قد سجن أحد معارضيه من أنسباء[٢] الأسرة المالكة ويدعى بندويه ، مما أثار ضده أخوه بسطام من أسرة أسباهيد بهلو المشهورة[٣] ، الذي تمكن بمساعدة بعض فرق الحرس الملكي من تحرير أخيه بندويه من سجنه ، ودخل الأخوان القصر الملكي ، وخلعا الملك ، وسملوا عينيه ، وقتلوه سنة (٥٩٠ م) ، ونصّبوا ابنه كسرى ملكاً بديلاً .

ولم يكن بهرام جوبين مستعداً لموالاة الملك الجديد ، إذ كان يشعر بأحقيّته في تولي الملك بزعم انتسابه إلى ا لملوكالبارثيين . وعندما اقترب بهرام وجنوده من العاصمة المدائن فرّ كسرى إلى الإمبراطور البيزنطي موريس (MOAURICE) (٥٨٣ ـ ٦٠٢ م) ، ودخل بهرام القصر الملكي وأعلن نفسه ملكاً . على أنه لم يهنأ بهذا المنصب إذ داهمته سلسلة من الاضطرابات أقامها رجال الدين وعظماء البلاد ضدّ حكمه ، وخاصة بسطام وبندويه ، ولم يرحب به إلا اليهود الذين زعموا ، كما تذكر المصادر ، بأنه حاميهم ، فأمدّوه بالمال وأيّدوه . وقد آتت المعارضة الداخلية أُكلها عندما هزمت القوات

(١) تذكر المصادر أن هرمزد أرسل إلى قائده المهزوم بهرام علبة فيها ملابس نساء وأدوات حياكة وتطريز .

(٢) تذكر المصادر أن بندويه وأخاه بسطام كانا شقيقين للملكة وخالين لولي العهد كسرى .

(٣) انظر فيما بعد مقدمة الجزء الثاني : (ثقافة الهضبة الإيرانية قبل قيام الدولة الساسانية) .

البيزنطية التي ناصرت كسرى قوات بهرام ، الذي هرب[١] وقتل بعد ذلك ، وأُعيد كسرى إلى عرش المدائن سنة (٥٩١ م) .

٢ ـ كسرى الثاني

حاول كسرى بعد تسلُّمه السلطة في هذه الظروف العصيبة استرضاء الجميع ، فأعاد القوات البيزنطية محمّلة بالغنائم والهدايا إرضاء للإمبراطور البيزنطي . وعيّن خاله بسطام والياً على خراسان ، وخاله الثاني بندويه مستشاراً في القصر الملكي ، وحاول التّقرُّب من رجال الدين الزّرادشتي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولكن كل مساعيه السابقة أدّت إلى عكس المطلوب ، فقد عارضه الزّرادشتيّون لأنه عشق وهو في المنفى امرأة نصرانية تدعي (شيرين) ، كان لها تأثير كبير عليه . وقتل مستشاره وخاله بندويه لخشيته من أن يثور مع أخيه بسطام ضدّه ، كما فعل الأخوان ضدّ أبيه ، فثار بسطام وامتنع في خراسان قرابة عشر سنوات ضدّ الملك[٢] . وأخيراً اغتال القائد البيزنطي فوكاس (PHOCAS) إمبراطوره موريس سنة (٦٠٢ م) ، فاتّخذ كسرى من حادث الاغتيال ذريعة لبدء حرب جديدة ضد بيزنطة . ومع أن إمبراطوراً جديداً يدعى هرقل (HERACULIS) قتل فوكاس سنة (٦١٠ م) إلا أن الحرب استمّرت بين الدولتين .

وتعدُّ الانتصارات التي حققها كسرى الثاني على الجيوش البيزنطية في سورية وآسية الصغرى وأرمينية ، بين سنتي (٦١٠ ـ ٦٢٧ م) ، أكثر انتصارات ملوك الساسانيين أهمية ، فقد تمكنت هذه الانتصارات من تهديد أسوار القسطنطينية لأول

(١) اتفقت المصادر الفارسية والعربية على ألمعية شخصية بهرام جوبين ، وأمدت الأدباء بمادة لقصص شعبية فاقت الخيال ، كما جاء في (شاهنامة الفردوسي) ، ويبدو من خلال أحداث قصة هذا الرجل أنه لم يكن محارباً متميّزاً فحسب ، بل كان رجلاً أوتي من الصفات الخيّرة ما جعله قدوة لكثير من الأبطال الشعبيين في القصص الفارسية وحتى الهندية .

(٢) لا تعرف تفاصيل كثيرة عن هذه السنوات العشر باستثناء أن بسطام قتل آخر الأمر .

مرة في تاريخها على يدي القائدَين شاهين وشهر براز ، كما تمكنت قوات ساسانية بمساعدة يهود بيت المقدس من دخول المدينة المقدسة واستباحتها ، والاستيلاء على الصليب المقدس[١] بعد العثور على مكانه الذي أخفاه فيه نصارى المدينة المقدسة ، ولكنهم باحوا بالمكان بعد استخدام الفرس طرق تعذيب مروعة ، وقد أرسل القائد شهر براز الصليب المقدس إلى المدائن ، كما تمكنت قوات ساسانية أخرى من الاستيلاء على مصر التي سقطت سنة (٦١٨ ـ ٦١٩ م) ، وكان فقدانها كارثة هائلة على الإمبراطورية البيزنطية ، التي خسرت إحدى أهم ولاياتها من الناحيتين الاقتصادية والبشرية ، وإن كان هذا الاستيلاء قد أتاح لكسرى أن يطلق على نفسه لقب (أبرويز) ، ويعني المظفر[٢] ، على أن الإمبراطور هرقل لم يفقد الأمل ورأى صعوبة في مواجهة أعداء إمبراطوريته في أوربا وفي آسية دفعة واحدة ، وقرر مهادنة كسرى والتّفرغ إلى أعداء الغرب ، ولذلك أرسل سفارة لمفاوضة كسرى مع رسالة وهدايا قيّمة . وقَبِل كسرى الهدايا ، وأرسل رسالة إلى هرقل يقول فيها : « إن دولة الروم من أملاك كسرى وما إمبراطورها إلا أحد العصاة والعبيد الآبقين ، وإن كسرى لن يمنحه السلام حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس » .

ومع ذلك فقد تحمّل هرقل الإهانة من أجل تحقيق الهدف المرسوم . وبدأ بعد ضمان حدوده الغربية في أوربا بالقضاء على خطر قبائل السلاف والآفار المشاكسة ، يعدّ العدة لاسترداد ما فقدته إمبراطوريته في الشرق ، وتمكن من تأسيس جيش خفيف الحركة كثير الأسلحة والتدريب . وبالاتفاق مع القبائل النصرانية في كل من آسية الصغرى وأرمينية وبلاد القوقاز وسورية ، وخاصة الغساسنة ، حقق هرقل انتصارات

(١) كان نصارى فلسطين يعتقدون بأنه الصليب الذي صلب عليه المسيح . وقد نشرت مجلة جامعة القديس يوسف في بيروت (١٩٣٢ م) نصاً عربياً عن سقوط بيت المقدس في أيدي الساسانيين سنة (٦١٤ م) ، راجع الجزء التاسع ، القسم الأول .

(٢) توردّ النقوش ألقاب كسرى بعد هذا التاريخ على النحو التالي (الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جداً بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذي يصحو مع الشمس) .

استردّ بنتيجتها آسية الصغرى ثم أرمينية . ويبدو أن تلك الهزائم المتكررة المتتالية أفقدت الجيش الساساني معنوياته ، كما أدت إلى تأزيم الوضع الداخلي نتيجة تصرُّفات كسرى مع القادة المهزومين في المعارك ، مما أدى إلى تقدُّم سريع لقوات هرقل باتِّجاه العاصمة المدائن ، وفي موقع يقال له دستكرد أو داستجرد (Dastagerd) بالقرب من موقع نينوى حشد كسرى في ميدان القتال كل ما لديه من قوات تحت إمرة رازاتس (Rhazates) ، وأمره بالقتال حتى الموت ، وفي ذات الموقع هَزمت القوات البيزنطية سنة (٦٢٧ م) قوات الفرس هزيمة منكرة ، هرب كسرى على أثرها إلى المدائن ومنها باتجاه الشرق ، ولكنه استسلم أخيراً لقوات أرسلها ابنه شيرويه (Siroes) ، الذي أرسل إلى هرقل رسالة استعطاف وتذلُّل ، وقَبِل بكل الشروط التي طلبها الإمبراطور المنتصر سنة (٦٢٨ م) . وأهمها جلاء القوات الفارسية عن كل الأراضي التي احتلتها في مصر وسورية وآسية الصغرى ، وإطلاق سراح الأسرى ، ودفع غرامة حربية ، وإعادة الصليب المقدس .

وقد أضافت هزيمة كسرى[1] وفراره كراهية إلى كراهية الشعب الذي نقم عليه إساءته لقواده الذين هزموا في معاركهم ضدّ البيزنطيين ، وخاصة شاهين وشهر براز ، وكذلك رغبته في تنصيب ابنه من عشيقته شيرين النصرانية خلفاً له . ويبدو أن كل هذه العوامل تكاتفت لكي يذوق كسرى الكأس نفسها التي أذاقها والده من قبل . فكان أن ادّعى ابنه شيرويه وراثة العرش ، وزجَّ بوالده في سجن مظلم ، وأمر فيما بعد بقتله إرضاء لمنتقديه من عظماء الدولة الذين يبدو أنهم ساندوا شرويه بناء على شروط كان قتل أبيه واحداً منها .

---

(١) تعدُّ وقعة ذي قار أول هزائم كسرى العسكرية ، وتذكرها الروايات العربية على هذا النحو : « كان للنعمان ملك الحيرة ابنة جميلة طلب كسرى من حليفه النعمان الزواج منها فرفض ، وخشية من انتقام كسرى ، أودع النعمان عند قبيلة بني شيبان كل نسائه وأمواله وذهب ببعض الهدايا إلى كسرى للاعتذار منه ، لكن كسرى قتل النعمان . ولما طلب من بني شيبان تسليمه أموال وحلال النعمان رفض بنو شيبان وامتنعوا بتأييد من القبائل العربية المجاورة . وعندما التقى جيش كسرى بالعرب انضمّ العرب في جيش كسرى إلى أبناء عمومتهم وهزموا الفرس هزيمة منكرة نحو سنة (٦١١ م) » ، وتذكر المصادر أن الرسول ﷺ عندما سمع بأخبار (ذي قار) سرَّ سروراً شديداً .

٣ ـ قباد الثاني

جلس شيرويه على عرش الدولة بعد والده سنة (٦٢٨ م) ، واتّخذ لنفسه اسم قباد ، وكانت أبرز أعماله تحقيق الصلح مع بيزنطة ، الذي كانت من أبرز شروطه إعادة الأسلاب ، ومنها صليب المسيح الذي احتفل بعودته إلى بيت المقدس سنة (٦٢٩ م) ، وما زال نصارى آسية الغربية يحتفلون بهذا العيد كل يوم يوافق ١٤ أيلول (سبتمبر) من كل سنة باسم عيد ارتفاع الصليب . بعد ذلك انصرف قباد للأمور الداخلية فأصدر مجموعة من المراسم الجديدة ؛ أهمها إيقاف دفع الضرائب التّعسفية وإطلاق سراح المسجونين . ولكنه بهذه الإنجازات لم يقصد التّخفيف عن شعبه بقدر ما قصد تثبيت أركان حكمه ، فقد كشف قتلُه جميعَ إخوته تخلُّصاً منهم شخصيته الحقيقية التي لم تصمد أمام الطاعون[١] الذي اجتاح إيران بعد حكم لم يتجاوز سنة واحدة .

٤ ـ أردشير الثالث

تولى بعد وفاة والده قباد ، وكان طفلاً في السابعة من عمره ، مما أطمع فيه عدداً من قادة كسرى أبرويز ، وأشهرهم شهربراز ، الذي اتفق مع الإمبراطور هرقل على تأييده لاستلام السلطة مقابل أتاوة معلومة ، وفعلاً دخل شهربراز العاصمة المدائن وقتل الملك الصغير ، وادّعى نفسه ملكاً ، فثار عليه عدد من الولاة الذين رفضوا أن يخضعوا لواحد منهم ، وقتلوه بعد أن حكم سنة ونصف ، وأعلنوا (كسرى بن الأمير قباد وأخو كسرى الثاني) ملكاً عليهم . وبدأ بذلك عصر الفوضى في الدولة الساسانية الذي آذن بانهيارها وسقوطها بعد حين .

---

(١) تختلف الروايات حول موت قباد ، فالروايات البيزنطية ، خاصة رواية ثيوفانس ، تذكر أن عشيقة والده شيرين قد دسّت له السُّم انتقاماً لقتله والده ، في حين تذكر الروايات العربية ، منها رواية ابن قتيبة ، أنه مات بالطاعون ، وتختلق روايات عربية أخرى مثل الثعالبي والفردوسي قصصاً مأساوية عن موته أو مقتله .

ثامناً ـ مرحلة ما قبل انهيار الدولة وسقوطها

يعدُّ كسرى الثاني أبرويز ، مع كل عيوبه ، أشهر ملوك الدولة الساسانية بعد أنوشروان . ويبدو أن العظمة والفخامة التي رسخت في أذهان عامة الناس وخاصتهم عن هذا الملك وقصوره وحريمه[1] وأبهة بلاطه وثرائه الواسع ، قد أدت فيما بعد إلى أن يصبح اسمه لقباً يشير إلى نظام الملكية في الدولة الساسانية ، وأصبحت كلمة الأكاسرة تعني كل ملوك الدولة ، على الرغم من أن هذا الاسم أطلق فقط على أربعة من ملوك الأسرة الحاكمة . فقد استطاع خلال حكمه الطويل كبح جماح عظماء الدولة ، وتحقيق انتصارات مذهلة على أعداء البلاد ، وضخّم من خزانته بشكل لم يسبق له مثيل ، إلا أنه لم يتمكن من تأليف قلوب الناس داخل مملكته ، ونقم عليه عظماء الدولة ، خاصة بعد المعاملة المهينة التي كالها لقواده من الأسر التي كان لها دور محترم في تاريخ البلاد ، وقيمة معنوية كبيرة في أعين معظم عامة الناس . ولعل انسياقه وراء فكرة تحقيق مجد شخصي عن طريق الحروب كانت بداية النهاية لحكمه وحكم دولته على المدى القصير .

وعندما بويع كسرى الثالث ابن قباد أخو كسرى ، ملكاً على الدولة تمرّد ضدّه حاكم خراسان وقتله ، وبويعت في العاصمة المدائن بوران دخت ابنة كسرى أبرويز ملكة ، لكنها لم تحكم لأكثر من ١٦ شهراً ، حكم بعدها ملك يدعى فيروز الثاني مدة لم تتجاوز عدة أشهر ، نصّبت بعدها آزرميدخت أخت بوران ملكة لمدة شهور ، تمكنت في هذه الشهور من توقيع صلح نهائي مع الإمبراطور هرقل في بيزنطة ، لكنها مع ذلك أطمعت فيها أحد قادتها المدعو فرخ هرمزد ، الذي أكرهها على الزواج منه ، فتزوجته

---

(١) ذكرت الروايات عدد حريم كسرى بأنه يتراوح بين ثلاثة آلاف واثني عشر ألفا ما عدا الجواري . انظر ملحق الدراسة رقم (١) .

ثم قتلته ، مما دفع ابنه القائد (رستم) إلى إعلان الثورة ودخول المدائن وقتل الملكة سنة (٦٣٠ م) .

وفي الفترة ما بين (٦٣٠ ـ ٦٣٢ م) حكم المدعوان هرمزد الخامس وكسرى الرابع بعض أجزاء من الهضبة الإيرانية دون أن يعرف عنهما شيء باستثناء اسميهما اللذين وردا على بعض النقود . وفي مدة أربع سنوات تالية (٦٣٢ ـ ٦٣٦ م) حكم الدولة أكثر من عشرة ملوك غير معروفي النسب ، إلى أن تمكن العظماء من العثور على أمير من سلالة كسرى أبرويز يدعى يزدجرد بن شهريار ، ويذكر الطبري أن أمه كانت إفريقية وأنه كان يعيش متخفياً في برسبوليس (إصطخر) ، فبايعوه ، واستولوا بقيادة القائد رستم على العاصمة ، وتمكّنوا من توحيد الدولة للمرة الأخيرة . إلا أن هذا التوحيد كان متأخراً جداً ، إذ ما إن دخل يزدجرد القصر الملكي في المدائن حتى تجلّت كل آثار تدهور الدولة ، إضافة إلى أن الملك الشاب لم يكن كفؤاً لإعادة بناء هيكلية الدولة من جديد وتنازل عن هذه المهمة إلى قائده رستم .

كان رستم كما تصفه الروايات رجلاً بكل معنى الكلمة ، لكنه تسلّم السلطة في الوقت غير المناسب ، فقد كان حسب المصادر الفارسية فذّ القيادة حسن الإدارة ، أدرك بشكل سليم أن أشد الأخطار على الدولة تكمن في تحرُّك العرب من جزيرتهم ، بعد أن أطلقهم من عنانهم دين جديد ، أوجد بينهم لأول مرة مبادئ المساواة والإخاء ، وشجعهم على التضحية بالنفس والفداء إلى أقصى الدرجات مقابل جنة موعودة . وقد بذل رستم جهوداً جبارة للذود عن حكمه ضدّ هذا العدو الجديد ، وتمكن من تجميع قوات هائلة في محيط العاصمة .

١ ـ معركة ذات السلاسل

على أن القوات الساسانية لم ترهب العرب المسلمين لكثرتها ، ذلك أن العرب في وقعة ذي قار (٦١١ م) كانوا قد خبروا القتال ضدّ جيرانهم الفرس ، ولذلك فإنه

عندما توجّه خالد بن الوليد سنة (٦٣٣ م) باتجاه الحدود الفارسية طلب من قائد حرس الحدود ، ويدعى هرمزد ، الدخول في الإسلام أو دفع الجزية ، لكن هرمزد طلب من خالد أن يتحاربا رجلاً لرجل على عادة معارك التاريخ القديم ، فوافق خالد رضي الله عنه ، وقتل هرمزد ، وهجم المسلمون على أعدائهم وشتّتوا شملهم . وقد أطلقت المصادر على هذه المعركة اسم ذات السلاسل (جنك زنجير) ؛ لأن جيش الفرس كان اصطحب معه كميات من السلاسل لتقييد المسلمين فيما لو تمّ له النصر عليهم . وحقق خالد عدداً من الانتصارات على عدد من القادة الفرس في كل من أليس ورومية قبل أن يستدعيه الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ويتولى المثنى بن حارثة الشيباني قيادة جيش المسلمين بدلاً عنه .

٢ ـ معركة الجسر

وفي السنة التالية (٦٣٤ م / ١٣ هـ) عهد الملك ورستم إلى القائد بهمن جادويه بمهمة التّصدي للمسلمين العرب ، الذين عبروا الفرات على جسر من القوارب لمنازلة الفرس ، وفي هذه المعركة استخدم الفرس الفيلة التي لم يكن العرب قد خبروا القتال ضدّها ، وتسبّب الهرج الذي أحدثه ظهور الفيلة في المعارك واستشهاد أبي عبيدة مسعود الثقفي وجرح المثنى بن حارثة إلى هزيمة المسلمين والعودة إلى المدينة . وعندما فرغ المسلمون من فتح بلاد الشام عيّن الخليفة عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لقيادة جيش المسلمين إلى بلاد فارس .

٣ ـ موقعة القادسية

وبعد نحو سنة من معركة الجسر (٦٣٥ / ١٤ هـ) جرت موقعة القادسية ، التي حشد فيها المسلمون نحو ثلاثين ألف مقاتل بقيادة سعد ، في مقابل جيش فارسي تعداده نحو مئة وعشرين ألفاً بقيادة رستم . وقبل الموقعة أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى يزدجرد وفداً مكوناً من اثني عشر سفيراً منهم المغيرة بن شعبة يدعونه إلى الإسلام

أو دفع الجزية ، فاستخفّ الملك الفارسي بسفراء عمر لمظهرهم وعيّرهم بملابسهم ، وأنهم يأكلون الحرباء ، ويقتلون بناتهم . فردّ عليهم المغيرة « بأنهم كانوا قبل الإسلام أسوأ حالاً بكثير مما ذكر الملك ولكنهم بعد الإسلام اغتنوا وشبعوا ، وأنهم سيردون على رفض الملك بالسيف » .

وعندما وصل ابن أبي وقاص إلى موقع القادسية في موقع كربلاء المعاصرة جنوب العراق ، نشبت إحدى أعظم معارك التاريخين القديم والوسيط ، واستمرت لمدة أربعة أيام ، كان اليوم الأول لصالح الفرس ، الذين أحسنوا استخدام الفيلة في المعركة ، والتي تسببت في ذعر الخيول الإسلامية وتمرُّدها على فرسانها . وفي اليوم الثاني من أيام المعركة وصلت نجدات إسلامية من الشام بقيادة القعقاع بن عمرو ، وهزم المسلمون فرسان الجيش الساساني ، وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف . وفي اليوم الثالث تجرّأ المسلمون على فيلة الفرس بعدما نجح القعقاع بفقأ عين أحد الفيلة وارتداده على أعقابه ، وعندما فعل باقي المسلمون ذلك ارتدت كافة الفيلة على أعقابها محدثة فوضى كبيرة في صفوف مشاة الفرس . واستمر القتال في هذا اليوم حتى صباح اليوم التالي ، ولم يترك المسلمون مجالاً لراحة أعدائهم في الليل ، وفي اليوم الرابع هبت ريح في وجه الجيش الفارسي أدت إلى اضطراب في وضع الخطوط القتالية للجيش الفارسي ، مما أتاح للمسلمين اختراق صفوف العدو وتشتت قواه ، وأدى إلى هرب قائده رستم ، الذي لحق به أحد المسلمين ، ويدعى هلال بن علقمة ، وقتله ، وقال كلمته المشهورة : « قتلت رستم وربِّ الكعبة » ، وَوَقَعَ علم كاويان (درفش كابيان)[1] في أيدي المسلمين ، وهو راية الجيش الفارسي وأقدس ممتلكاتهم المادية والمعنوية . ويقال بأن جواهره كانت تساوي ثروة طائلة في تلك الفترة .

وبعد راحة لمدة شهرين أعطاها سعد بن أبي وقاص لجنوده ، بدأ زحفه للاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس ، بعد الاستيلاء على الحيرة والمناطق المحيطة بها . وقد عرض

(١) انظر ملحق الدراسة رقم (٢) .

يزدجرد على سعد ، وهو في طريقة إلى المدائن ، أن يتنازل له عن كل ما هو غرب الدجلة مقابل الصلح ، ولكن سعداً رفض هذا العرض وسار باتجاه العاصمة التي غادرها يزدجرد ، وغنم المسلمون منها ما يصفه ابن كثير والطبري بكثير من الفخامة والروعة والعظمة ، لعل أهمها كان تاج كسرى وسجادة بهارستان[1] ، التي أرسلها سعد إلى عمر بن الخطاب بعد توزيع الغنائم على المقاتلين .

٤ ـ معركتي جلولاء ونهاوند

وبعد تحرُّك سعد لاحتلال مناطق كردستان في الشمال بلغه أن يزدجرد جمع جيشاً في موقع جلولاء بالقرب من قلعة حلوان في جبال كردستان ، فكلّف سعد كلاً من هاشم بن عقبة والقعقاع بن عمرو بقيادة اثني عشر ألف مقاتل مسلم ، وفي ذات الموقع نشبت معركة جلولاء (٦٣٧ م / ١٦ هـ) ، التي انتصر فيها العرب وغنموا نحو مئة ألف من خيول مقاطعة ميدية المشهورة بأصالتها وحسن تدريبها . وبعد المعركة وصلت إلى سعد رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بعدم متابعة يزدجرد والاكتفاء بما بين النهرين . وفي السنة التالية (٦٣٨ م / ١٧ هـ) بدأ المسلمون بتشييد مدينتي الكوفة بالقرب من الحيرة ، والبصرة على أنقاض مدينة الأيلة القديمة ، وعندما حاول المسلمون مهاجمة الساحل الإيراني تعرّضوا لهزيمة ارتدّوا بعدها إلى البصرة . ومنها استعادوا مدينة الأهواز والشاطئ الإيراني الجنوبي بعد نحو سنة من تلك الانتكاسة .

وكانت معركة نهاوند سنة (٦٤٢ م / ٣١ هـ) آخر معارك الملك يزدجرد ضدّ المسلمين الذين قادهم القائد النعمان بن المقرن ، والذي على الرغم من تفوق الجيش

(١) تبالغ المصادر العربية في وصف النفائس التي حصل عليها المسلمون ، فيصف ابن كثير في (البداية والنهاية) الجزء الثاني ص ٦٦ من طبعة ١٩٧٤ هذه النفائس بقوله : استحوذ المسلمون على مالم يرَ أحد في الدنيا أعجب منه ، وفي جملة ذلك تاج كسرى المزين بالجواهر التي تحير الأبصار ، وكذلك سيفه وسواره وبساط إيوانه وكان مربعاً ضلعه ستون ذراعاً منسوج بالذهب واللآلئ والجواهر ، وقد صورت فيه جميع ممالك كسرى بكل أقاليمها ومعالمها . (القول المذكور بتصرف) .

الإيراني العددية تمكن من خديعة القـائـد الفـارسي فيروزان والحصول على نصر مؤزر ، أطلق عليه المسلمون بعد ذلك اسم فتح الفتوح . وبعد هـذا الفتح بعشر سنوات خضعت أراضي الدولة السـاسانية بكاملها لجيوش الإسلام باستثناء إقليم طبرستان ، الذي دخل في الإسـلام منتصف القرن الثـاني الهجري . وكان يـزدجرد قــد قتـل في سنـة (٦٥٢ م / ٣١ هـ) على يدي طحان كان قد لجأ إليه ، فطمِع الطحان في ملابسه وما معه ، فقتلـه منهياً بذلك حكم سلالة استمرّ لأكثر من (١٦) سنة من تاريخ هذه المنطقة .

تاسعاً ـ أسباب سقوط الدولة الساسانية

تعددت أسباب سقوط الدولة الساسانية وافترقت بين أسباب داخلية وأخرى خارجية ، ففي المجال الداخلي أدّت المنازعات بين أفراد الأسرة المالكة إلى ضعضعة البنيان المتين للدولة وهيبة الملوك ، كما ساهمت الاضطرابات العقائدية بين الديانة الرسمية ، وهي الزرادشتية ، والديانات المسموح بتداولها في بعض الفترات كاليهودية والنصرانية ، وانقسام هذه الديانة بدورها إلى نساطرة ويعاقبة ، ومحاولات ماني ومزدك لتطوير الزرادشتية ، كل ذلك ساهم في تشتُّت شمل الشعب ، وانقسامه إلى فئات وطوائف وجماعات وشعوب وإمارات وممالك إقطاعية متعصِّبة بشدة لما تؤمن به ، ولا ترضى بالحوار مع الأطراف الأخرى ، أو التعايش معها . وقد أدى تراوح نفوذ عظماء الدولة من زعماء الإقطاعيين أو رجال دين بين تعاظم وانحسار ، بحسب قوة الملك وضعفه ، إلى نشوء أحقاد غذّتها الأطماع المادية والطموحات الزعامية ، أضاف إلى شرذمة الدولة شرذمة جديدة ساعدت على ضعفها . ولا شك أن الضرائب الهائلة التي فرضها ملوك الدولة على عامة الناس بحجة التزامات الحروب قد ساهمت في إفقارهم وتكاسلهم وتراخيهم وقت الحاجة إليهم في المعارك . فلم يعد المواطن العادي يشعر بأنه يدافع عن شيء له أي قيمة معنوية أو مادية ، فقد كان يرزح في حالة فقر مدقع ، وكرامة مهدورة ، وملوك مستهترين دون أي أمل في الإصلاح . وهو أمر أدى إلى ضعف الجيش وتمزّقه وقلة حماسه واندفاعه ، كما ارتبط كل ذلك بتدهور أحوال الزراعة والصناعة والتجارة التي انقطع عنها أهلها بمناسبة الحرب ، أو أنهم لم يعودوا يمارسونها بشغف ، كما كانوا يفعلون في الأيام السابقة ، حيث كانت غلات أراضيهم أو أرباح صناعاتهم وتجاراتهم تعود إليهم أولاً ، لا إلى خزائن الحكام والولاة والقادة والملوك .

أما في المجال الخارجي ، فقد أدت حروب الدولة ضدّ معظم جيرانها ، البيزنطيين ، والأتراك ، والهياطلة ، والأرمن ، والعرب ، وممارسات التّعصب القومي والديني الذي مارسه الملوك في كثير من الفترات إلى تواصل حروب هذه الدولة ضدّ معظم جيرانها بل كلّهم ، لدرجة كان الجميع يتمنى زوال هذه الدولة وحكامها في أقرب فرصة . وفي مقابل ذلك أدت أخبار الدين الجديد التي انتشرت في مناطق الهضبة الإيرانية وما يحيط بها حتى قبل وصول المسلمين إلى تلك الأصقاع ، خاصة عن التسامح الديني والمساواة الطبقية وشورى التعامل السياسي إلى تكريس القناعة بدين جديد له كل هذه المواصفات الأخلاقية الرائعة ، مما أدى إلى تمهيد السُّبل لفتح المسلمين أقاليم الهضبة الإيرانية وانتشار الإسلام بسرعة فيما بعد .

الجـــزء الثاني

معالم التاريخ الحضاري
للدولة الساسانية

مقدمة ـ ثقافة الهضبة الإيرانية قبل قيام الدولة الساسانية

ربط الإيرانيون أفراد مجتمعاتهم تاريخيّاً بأربع وحدات رئيسية هي : البيت والقرية والقبيلة والإقليم ، وأطلقوا على وطنهم اسم إيران ، وهي تسمية مشتقة من تسمية العرق الآري الأولى ، الذي يفترض الأنتروبولوجيون الإيرانيون انتسابهم إليه ، وعلى هذا كان الملوك يؤكّدون في أسمائهم المعتمدة هذه النسبة الأسرة والقبيلة والإقليم والأمة ، ويظهر هذا أوضح ما يكون في اسم الملك دارا الأول[1] ، حينما يذكر في النقوش من عهده دارا ، (الاسم) ، ابن ويشتاسبا (الأسرة) ، الأخميني (القبيلة) ، الفارسي (الإقليم) ، الآري (الأمة) .

ومنذ بدايات التاريخ السياسي اعترف المجتمع الإيراني بوجود سبع أسر ممتازة :
أولها الساسانيون ثم قارن بهلو ومركزها في مدينة نهاوند .
ثم أسرة سورين بهلو ومركزها في مدينة سيستان .
وبعدها اسباهيد بهلو في مدينة كركان[1] .
وخامسها اسبندياد في مدينة الرّي .
وسادسها مهران في مدينة برسبوليس (اصطخر) .
وآخرها أسرة زيك .

وهي جميعها أسر تعود في أصولها إلى سلالات حكمت معظم الأقاليم الإيرانية ، وكوّنت قمة النظام الإقطاعي في الدول التي تعاقبت على حكم إيران ، والتي كان يرأسها

---

(١) دارا (Dara) بالعربية هو داريوس (Darios) باليونانية ، الملك الثالث أو الرابع في الدولة الفارسية القومية الأولى ، وتنسب إليه مجموعة من الإنجازات العسكرية والحضارية ويتفاخر الإيرلنيون بإنجازاته حتى التاريخ المعاصر .

الملك بصفته الإقطاعي الأكبر ، الذي اعترفت له الأسر المذكورة بحقّه في الحكم مقابل مباركته سلطتها المتوارثة على الأقاليم التي تبعت لها ، وتعهّدها مقابل ذلك بتقديم الخدمات المادّية والمعنوية له في حالة الحاجة .

ومع أن النظام الاجتماعي في بدايته عرف رؤساء لكل من البيت والقرية والقبيلة والإقليم ، إلا أن الدولة الإيرانية ألغت في بدايات تشكيلها دور رئيس القبيلة ورئيس الإقليم . وأبقت على رئاسات القرى التي رغم صغار شأنها فإن ثباتها وأهميتها مكّنت البارثيين من تأسيس دولتهم على أكتاف هذه الرئاسات الصغرى ، مثلهم في ذلك مثل دارا الأول ، الذي أسّس دولته اعتماداً على هؤلاء الأريستقراطيين الصغار الذين استمدوا قوتهم من سيطرتهم التاريخية على الأراضي التي امتلكها أجدادهم بحقّ السيف ثم توارثها الأحفاد فيما بعد .

وكان من الطبيعي أن يطالب هؤلاء السادة بدور سياسي حتى ولو كان يقلّ قليلاً عن الدور الذي لعبه رؤساء الأسر السبع في إيران ، ولهذا فقد شكّلوا مجلساً للشورى كان الملك في الفترة ما قبل الساسانية يعتمد عليه في شرعية قراراته ، وينتقي من بين أفراده عدداً من مساعديه وأعوانه داخل البلاط ، أو في الأقاليم البعيدة ، وارتبطت لهذا بعض الوظائف الكبرى بطبقة معينة لم يكن من السهل على الملك الخروج عليها حتى ولو أراد ذلك ، وقد رأس هذا النظام الاجتماعي الإقطاعي ملك ينتسب إلى إحدى الأسر السبع ، سابقة الذكر ، يجمع كبار رجال الدولة على تنصيبه ملكاً في نظام هو أقرب في بداياته إلى الحكم الملكي ، المقيد بالنبالات الموروثة(١) ، ويمكن لهؤلاء الكبار في الدولة عزل الملك ، كما حقّ لهم تنصيبه فيما مضى . ولكن مع تطور الأحداث خرج الملوك ، وخاصة الأقوياء منهم ، عن الالتزام بقرارات عظماء الدولة ، وانقلب

(١) نظام الحكم الملكي المقيد بالنبالات الموروثة ، هو أقدم أشكال أنظمة الحكم الملكي في التاريخ ، عرفته جميع الأمم التي عرفت حضارات راقية ، وفي هذا النظام كان الملك يحكم بمساعدة النبلاء الذين أوصلوه إلى الحكم ، وكانوا يتساوون معه في الأهمية إلى حدّ كبير .

نظام الحكم إلى حكم ملكي مطلق أوتوقراطي (Autocratic) . وبناء على هذا التطور كان الملك يخشى على نفسه من حاشيته ومرافقيه وأقاربه حتى أفراد الدائرة الضيقة التي من المفترض أن يأمن بها ولها ، لأن علية القوم كانوا بحاجة إلى أحد أفراد الأسرة الحاكمة إذا أرادوا إقصاء الملك عن العرش . ولهذا كانت قسوة ملوك إيران خلال عهودهم على أقاربهم بالغة جداً ؛ لأن التّراخي في هذا الشأن قد يحرمهم من الحياة ، إن لم يكن من المزايا التي كان الملك يتمتع بها ، والتي كانت تتجلى أكثر ما يكون في وضع التاج العالي على الرأس ، والنوم في أسرّة من الذهب ، والجلوس على عروش من الذهب المطعّم ، والقيام برحلات صيد إلى الغابات المقدسة لاصطياد الطرائد والوحوش المفترسة ، والعيش وسط أعداد هائلة من الخصيان والعبيد والإماء والجواري ، والتّلذّذ بالإنفاق من خزينة الدولة دون حساب .

١ ـ المعتقدات الدينية

وكمعظم الشعوب القديمة ، عبد الآريون قوى الطبيعة مثل : الشمس ، والقمر ، والرياح ، والأمطار ، وعناصرها مثل الجبال والأشجار والينابيع[1] ، والحيوانات ذات القدرات الكبيرة ، وأضافوا لهذه المعبودات في بدايات تاريخهم السياسي معبودات تمثّل قوى أخلاقية ومعنوية تجلّت في احترام الصدق والنّخوة ، والشهامة والكرم ، والشجاعة والمروءة ، كمقدّمة لإحداث تشريعات دينية مقبولة ، ومن ثم قوانين وضعية متّفق على صلاحها لحياة المجتمع . وفي فترة غير محددة اتّفق الإيرانيون على تسمية كبير الآلهة المادية والمعنوية باسم مزدا ، الذي كان اسمه يرادف الخير والأخلاق والعمران ، وعلى هذا اعتبرت الديانة المزدية أقدم من الزرادشتية في الهضبة الإيرانية ، ولكنها لم تكن خاصة

---

(١) تذكر بعض الروايات النّصرانية عن قدامى الإيرانيين أنهم كانوا يقدّسون الماء لدرجة أنهم كانوا يمتنعون عن استخدامه لغسلهم ويخصّونه فقط بالشرب وسقاية المزروعات ، في حين أنهم كانوا يستخدمون بول المواشي ، وخاصة الثيران ، لاغتسالهم !!.

بسكان تلك الهضبة بل كانت ديانة عالمية لكل البشر ، ويبدو أنها لهذا الزعم تمكنت من الانتشار بنسبة متفاوتة في أقاليم الشرق البعيدة .

ويعتقد أن الرجل المدعو زرادشت اتّخذ المزدية المعدلة ديناً يدعو له بداية في أقاليم سجستان وميدية وباكترية ، وهي الأقاليم التي عرفت استيطاناً زراعيّاً مبكّراً مستقرّاً ، وذلك بدءاً من القرن السابع ق.م ، وهو التاريخ الذي عرفت فيه معظم شعوب الأرض ظهور مصلحين وديانات وتشريعات لحاجتها الماسّة لتنظيم شؤون حياتها . وقد اختصر دين زرادشت في تشكيل أساسه الصراع الدائم بين الخير والشّر[1] ، الذي سينتهي حكماً إلى سيادة الخير وغلبة قوى الحياة على قوى الموت ، والتي تتجلى أكثر ما يكون في الدعوة إلى الفكر الطيب ، والقول الطيب ، والعمل الطيب ، وهي الأسس الثلاثة التي ترتكز عليها مبادئ الأخلاق الزرادشتية ، التي تؤدي بالمؤمنين إلى جنات الخلود ، وبالعافّين عنها إلى جهنم وبئس المصير . وثبّت زرادشت أصول دعوته في كتابه بعنوان (الأوستا) الذي سيأتي الحديث عنه وعن زرادشت تفصيلاً في مجال لاحق .

ومنذ السّبي البابلي أيام بختنصّر انتشر اليهود الذين تزايد عددهم في أواسط آسية ، وبشكل خاص في الهضبة الإيرانية ميدية وفارس ، ومارسوا كل المهن ، وتكتلوا في جاليات ، زعموا أنها حصلت من حكومات تلك الفترة على استقلال ذاتي وديني ، ومارسوا شرائعهم ، واهتموا بتدوينها ، وتدوين تاريخهم في المنطقة دون الدعوة إلى ديانتهم .

أما المسيحية فقد كان انتشارها في إيران ضئيلاً جداً على الأقل حتى نهاية القرن الأول الميلادي ، حيث تركزت في شمال الرافدين ، ولم يمارس النصارى أي دور سياسي لهم في الفترة ماقبل الساسانية .

(١) تذكر الأساطير الإيرانية القديمة أن إلَهي الخير والشّر (أهورا مزدا) و (أهريمان) كانا أخوَين توأمَين انحدرا من صلب أبيهما (زروان) وهو الزمان اللامنتهي . انظر فيما بعد عن الزرادشتية .

وقد أتاح اختلاط الشعوب في آسية الوسطى أرضاً صالحة لمزج هذه الثقافات والديانات المختلفة ، والواقع أنه لم تختفِ أي ديانة قديمة في إيران مهما تضاءلت أهميتها ، بل توحدت مع أديان أخرى تحت مسميات جديدة وأشكال معدّلة ، لدرجة أن ديانات إيران في الفترة ماقبل الساسانية تراوحت بين اليهودية والنصرانية التوحيديتين إلى البوذية والزرادشتية واليونانية والهندية والكنعانية الوثنية وغيرها أقل أهمية .

٢ ـ اللغات الرسمية والشعبية

تمكنت الأبحاث التي أجراها الآثاريون على مجموعة النصوص التي عثر عليها في التنقيبات الأثرية ، أو المقتنيات الشخصية ، أو الرسمية من تحديد اللغات المتداولة في الهضبة الإيرانية خلال الفترة ماقبل الساسانية ، والتي يمكن حصرها في سبع لغات أو لهجات محددة ، بعضها محلي النشأة كالبهلوية والصّغدية والطّخاوية ، وآخر من خارج إيران كالسّنسكريتية والصينية والتّبتية والإيغورية .

وتقسم البهلوية إلى لهجتَين :

الأولى التي تعرف باسم البهلوية الساسانية ، وهي لغة الحديث في جنوب غرب إيران وسميت بالساسانية ، لأنها أصبحت اللغة الرسمية في عهد الدولة الساسانية .

واللهجة الثانية هي البهلوية البارثية أو البهلوية الإشكانية وهي لغة الملوك البارثيين ودولتهم قبل قيام الساسانية . وكانت اللهجتان تكتبان بالأحرف الآرامية المعدّلة . وجدير بالذكر أن معظم الأدب الديني الزرادشتي كان يخط باللهجة الساسانية . وأن الدراسات المعاصرة للهجتَين أثبتت أن اللهجة الساسانية تأثرت كثيراً باللهجة الإشكانية ، خاصة في المفردات الخاصة بالحياة الدينية والاجتماعية وحتى السياسية ، وأيضاً في تركيب الجمل وأسماء الأسلحة والأدوات الطّبية والأمراض وغير ذلك .

وتعدُّ اللغة الصّغدية لغـة الكلام في شرقي إيران حتى الصين . وقـد عثر على مجموعـة نصوص كتبت بهذه اللغـة ، خـاصـة تلـك التي تتعلّق بـالإنجيل . كما استخـدمت اللغـة الساجية والطّخاريـة في الأقـاليم الشماليـة الغربيـة من الهنـد (أفغـانستـان وبـاكستـان المعاصرتَين) . أما اللغة الآرامية ، فقد كانت لغة مستخدمة في كافـة شؤون الحيـاة منـذ أيام الأخمينيين ، في القرن السادس ق . م ، لدرجة أن عدداً من الألفاظ الآرامية بقيت مستخدمة في اللهجتَين الساسانية والأشكانية . واعتمد نصارى الدولة اللغة السريانية لغة مقدسة إضافة إلى اليونانيـة واللاتينيـة اللتين كانتـا اللغتين الأكثر تـداولاً في المـدن ذات الطابع الكلاسيكي في آسية الغربية وبلاد الرافـدين ، مثل أنطـاكيـة ، وبـابل ، ومـدن الساحل السوري ، كما استخدمها ملوك الدولة الساسانيـة لحـاجتهم إليهـا في مخـاطبـاتهم حكام الأقاليم البيزنطية وقبلها الرومانية .

الفصل الأول
تنظيمات الدولة الساسانية

أولاً ـ دين جديد للدولة

يعدُّ أردشير الأول مؤسّس الدولة الساسانية واحداً من أبرز مؤسّسي الأُسر المالكة في التاريخ ، فقد عادلت إنجازاته في حقل تثبيت أركان دولته واستمرارها لما ينوف عن أربعة قرون إنجازاته في المجال العسكري ، التي تمكّن خلالها من بسط سيطرته على أصقاع المنطقة الإيرانية وبعض المناطق المتاخمة لها شرقاً وغرباً .

ولعل أبرز هذه الإنجازات كان في اعتماده مقولة شهيرة أصبحت فيما بعد ركناً من أركان تأسيس الدول في التاريخ الوسيط ، وهي : « لا خير في دولة لا دين لها ، ولا خير في دين لا دولة له تحميه » .

وتطبيقاً لهذا المبدأ السياسي فقد اعتمد أردشير الديانة الأكثر انتشاراً في إيران وهي الزرادشتية ديناً رسميّاً لدولته ، وأمر كبير وزرائه المدعو تنسر بجمع كافة النصوص المتعلقة بكتابها المقدس المدعو الأوستا (الفستا) في مجلد واحد ، وأجازه باللغة البهلوية البارثية ، واعتبره الكتاب المقدس . وفي عهد ولده وخليفته سابور الأول ، أدخل رجال الدين إلى هذه النصوص الدينية نصوصاً طبية وفلكية وطبيعية عدّوها نصوصاً تعليمية ، وجبت إضافتها إلى ثقافة الزرادشتي الصالح لدينه ووطنه . وفي عهد لاحق ـ وربما من فترة سابور الثاني ـ وضع كبير رجال الدين وقتها حدّاً للخلافات المذهبية

بين بعض الزّرادشتيين ، واعتمد نصاً نهائيّاً للأوستا بأسفاره الإحدى والعشرين . وجدير بالذكر أن نصوص الأوستا التي وصلتنا الآن ليست إلا جزءاً من الأوستا الأصلية ، وهي ليست خاصة بالدين والعبادات فحسب ، بل هي أقرب ما تكون إلى دائرة معارف تاريخية وعلمية وفلكية وطبيعية وقانونية .

ثانياً ـ طبقات الشعب

وبموجب التوجيهات الإدارية أرسى أردشير الأول نظاماً اجتماعياً جديداً لدولته ارتكز على أربع طبقات رئيسة ، تأتي في مقدمتها طبقة رجال الدين آثرافان (Athravan) ، وطبقة رجال الجيش ، راثااستار (Rathaestar) ، وطبقة الكتّاب ، ديبران (Dibhran) ، وطبقة الفلاحين ، واستريو فسويانت (Vastryo Fsouyant) ، وتضم الطبقة الأخيرة فئات العمال والصّناع .

كما قسمت كل طبقة من الطبقات إلى عدة فئات ، فجاء على رأس الطبقة الأولى ، وهي طبقة رجال الدين ، الدادور ، وهم الحكّام ويرأسهم موبدان موبد ، وتليهم فئة العبّاد ، ثم فئة الماغان ، ثم الزُّهاد ، ثم السَّدنة ، ثم المراقبون ، ثم المعلمون .

أما طبقة رجال الجيش ، ويرأسهم إيران سباهيد ، فقسمت إلى مجموعة الفرسان ، التي قسمت بدورها إلى فرسان ثقال ، ثم فرسان خفاف ، وأيضاً مجموعة المشاة ، التي قسمت بدورها إلى فرسان ثقال ، ثم فرسان خفاف ، وأيضاً مجموعة المشاة ، التي قسمت بدورها إلى رماة ومشاة ثقال ومشاة خفاف .

أما طبقة الكتّاب ويرأسها إيران دبيربد ، فكان في مقدمتهم كتاب البلاط ، ثم كتاب الولاة ، ثم كتاب السجلات والمحاسبات ، وكتاب السّير ، ويدخل ضمن هؤلاء الأطباء والشعراء وعلماء الفلك والطالع .

وكانت الطبقة الرابعة وعلى رأسها وستريوشانسلار ، تشمل عدة أقسام أهمهم المزارعون والصناع والحرفيون ، وغيرهم .

وكان لكل قسم من هذه الأقسام رئيس مكلّف بإحصاء أفراد قسمه والتّحقق من إتقانهم أعمالهم والسماح لهم بممارسة هذه المهنة[١] .

ثالثاً - الإدارة المركزية

وكان يرأسها موظف كبير يحمل لقب هزاربد (Hazarpad) ، وكان هذا اللقب أو شبيهه هزارباتي (Hazarpati) ، يعني ، منذ الدولة الأخمينية ، قائد الألف رجل ، ولكنه كان يعادل منصب رئيس الوزراء وبواسطته أدار الملك شؤون مملكته منذ الدولة البارثية وحتى الساسانية . حيث كان أول من حمل هذا اللقب في عهد أردشير الأول المدعو أبهر سام .

ويذكر الطبري أن الهزاربد كان يدير دفة الأمور في الدولة الساسانية تحت رقابة الملك ، التي كانت تشتد وتتراخى حسب قوة أو ضعف شخصية الملك ، أو رئيس وزرائه . وكان هذا الموظف الكبير يمارس كافة الصلاحيات الملكية في حالات مشاركة الملك في الحرب أو خروجه في رحلات صيد . وكان يشرف بنفسه على المفاوضات الدبلوماسية وقيادة الجيوش إن دعت الحاجة . ونظراً إلى أنه كان يجمع بين يديه كل إدارات الدولة ، فقد كان الملوك يختارون لهذا المنصب رجالاً يتمتعون بثقافة عامة طيبة وسلوك اجتماعي رفيع ، وانتماء طبقي متميز ، إضافة إلى اتّصافهم بالحكمة ونظافة اليد وبُعد النظر . ويضيف الطبري أن منصب كبير الوزراء استمر بالصورة نفسها في الدولة العباسية دون تغيير كبير . ولعل الحدود التي كان يقف عندها كبير وزراء الدولة الساسانية ، كما في الدولة العباسية ، كانت متركزة في ثلاث نقاط : أولها أنه لم يكن بإمكانه تعيين خليفة له .

وثانيها أنه لم يكن بإمكانه أن يطلب موافقة الشعب على استقالته من منصبه ،

(١) استمرّ هذا التقسيم حتى أواخر عصر الدولة العباسية حيث كان رئيس الحرفة يلقب بـ (شهبندر) ، وعرف منهم (شهبندر التجار) ، و (شهبندر الصناع) وغيرها .

لأنه كان يتصرف باسم الملك ولصالح الشعب ، وليس باسم الشعب ولصالح الملك من الناحية النظرية على الأقل .

وثالثها أنه لم يكن بإمكانه عزل أو نقل الموظفين الذين كان الملك يعينهم مباشرة .

رابعاً ـ البلاط الملكي والحاشية

وباعتباره الآمر الأول والرئيس الفعلي لكافة إدارات الدولة المركزية ، فقد كان الملك يرأس جميع مكاتب (دواوين) إدارات الدولة .

ولا يعرف بدقة عدد الدواوين وأعمالها الإدارية المختلفة في الدولة الساسانية ، إلا أننا نعرف أنه كان للملك أختام تمهر فيها كتبه إلى هذه الدواوين ، فكان هناك خاتم السّر ، وخاتم الرّسل ، وخاتم السّجلات والوثائق ، وخاتم الخراج ، وكان لكل خاتم ديوانه الخاص به . ولا شك أنه كانت هناك دواوين أخرى تخصّ الحرب ، والبريد ، والنقود ، والمقاييس ، وغير ذلك من أنشطة الحياة العامة للدولة . ويذكر البلاذري معلومات عن ديوان المالية حيث يسجل أن الوستريو شانسلار صاحب الخراج كان يقدم سنوياً إلى الملك تقريراً عن واردات الدولة ونفقاتها ، ولا شك في أن الملك كان يستقبل باستمرار كبار مسؤولي دولته للاطّلاع منهم على حالات دواوينهم ، ويصدر أوامره لهم ـ شهرياً على الغالب ـ بعد ختمها وتسجيل محتوياتها في أصل يبقى في قصر الملك ، وصورة ترسل إلى الموظف المأمور لتنفيذ المضمون ، والإعلام بذلك . وتذكر المصادر البيزنطية والإسلامية وصفاً لبعض أختام الملك التي كانت تحمل صوراً رمزية ، أبرزها الختم الذي يحمل صورة خنزير بري (وراز) ، كان الملك يختم به المعاهدات والوثائق المبرمة مع الدول المجاورة . ويذكر المسعودي أن هذه المعاهدات كان يشفع بها كيس صغير من الملح دلالة المواثيق التي لا تنقض .

وكانت حاشية الملك تضم عدداً كبيراً من الأفراد والقادة الذين يتبعون الملك

مباشرة ، لعل أهمهم من الذين أتت المصادر على ذكرهم رئيس الديوان الملكي ورئيس المراسم أو التشريفات ورئيس المستودعات ورئيس السقاة ورئيس الذوّاقين ورئيس الحجّاب ورئيس الاصطبلات وكبير البوابين ، على أن أهم شخصيات البلاط الملكي كانت شخصية رئيس الحرس الملكي (بشتيكبان سالار) ، وكان هذا الحرس يتألف من أبناء نبلاء الدولة الذين يقومون على حراسة الملك في قصوره في حالة السلام والدفاع عنه في خيمته في حالة الحرب ، إضافة إلى مرافقته في زياراته أو رحلات صيده . وتذكر المصادر المعاصرة أنه قد أحاط بالملك أفراد أقل أهمية ، لكنهم لم يكونوا أقل تأثيراً ، منهم المنجّمون (اخترمار) ، وكانوا يتبعون طبقة الكهّان ، وكذلك الكهّان والأطباء (درست بد) ومعظمهم من النصارى ، وشعراء البلاط ، وأخيراً مجموعة الخصيان من الخدم الذين كانوا يقومون بخدمة نساء الملك بالدرجة الأولى .

خامساً ـ إدارة الشؤون الدينية

وهي نظريّاً الإدارة الأولى في الدولة الساسانية وينتمي أفرادها في معظمهم أو غالبيتهم إلى قبيلة ميدية الأصل ، تبوأت منذ بداية التّجمعات البشرية على الهضبة الإيرانية رئاستها الروحية ، وتدعى هذه القبيلة ماغان (Magan) ، وقد أيّدت هذه القبيلة انتشار الذين الزرادشتي عند بداية الدعوة له مما مكّنها من الاحتفاظ بمكانتها القديمة نفسها . ونظراً إلى طبيعة النظام الاجتماعي الإقطاعي الذي اعتمده أردشير الأول لدولته ، فقد أوجدت قبيلة الماغان لنفسها حلفاً مقدّساً مع السادة الإقطاعيين لا ينفصم عراه ، لدرجة أن عدداً كبيراً من قادة الطبقتَين كانوا يتحدون باستمرار لمقاومة نفوذ الملوك ، ولكنهم مع ذلك شكّلوا طبقتَين مختلفتَين .

ومع أن الماغان مارسوا سلطات روحية فائقة الأهمية لكل أفراد الطبقات الدنيا والعليا كا الوسطى إلا أنهم أثبتوا وجودهم في ممارستهم لسلطات مدنية هامة ، كإجراء عقود الزواج ، والموافقة على الطلاق ، وإثبات شهادات الميلاد والتّبني ، وكذلك في

تمتعهم بثرواتهم التي كانت تدرّها عليهم أراضيهم ، إضافة إلى هبات الأفراد وهبات الدولة . ولما كانوا يحتكمون إلى قوانينهم الخاصة ، فقد كانوا أشبه ما يكون بدولة داخل دولة .

وكان الرئيس الأعلى لرجال الدين الماغان يدعى موبدان موبد ، وهو اللقب الذي حمله المدعو ماهباد في عهد أردشير الأول ، وكان لهذا المنصب السلطة العليا في المسائل الدينية من الناحيتين الفقهية والإدارية . فهو الذي كان يفتي في المسائل الدينية الغامضة ، كما يعين ويعزل الموظفين الدينيين ، ويشكّل محاكم التّفتيش ، ويستشيره الملك في كل المسائل الدينية ، على الرغم من أن الملك كان نظريّاً يعيّنه في منصبه .

ويساعد الموبدان موبد شخصية دينية هامة جداً كان يطلق عليه لقب هربدان هربد . ويعرّف الخوارزمي كلمة (هربد) : بأنها تعني خادم النار ، ويبدو أن كبير مساعدي أردشير الأول المدعو تنسر كان يشغل هذا المنصب في بداية إرساء منظمات الدولة . ويشير الطبري إلى أن أبرز وظائف الهربدان هربد هذا كانت مسؤولية القضاء ، وهو رأي يؤيّده المسعودي بقوله : « إن الهرابدة كانوا يصدرون أحكامهم بوصفهم قضاة ومشرّعين » ، إضافة إلى أنهم كانوا يشرفون على طقوس الطهارة والاعتراف والغفران ، وإقامة مراسم الزواج ، والجنازات ، والأعياد الدينية المختلفة . وإذا ما عرفنا أن الفرد العادي ، كان بحسب قواعد الدين الزرادشتي ، معرّضاً في كل ساعات يومه لأن يقع في الإثم ، فإن لنا أن نتوقع أن رجل الدين العادي كان رجلاً هامّاً جدّاً في الحياة اليومية يراقب تصرفات الأفراد ، الذين كانوا يجبرون على الصلاة يومياً أربع مرات في النهار ، ومرة بعد ظهور القمر ، وأن يقدّسوا النار والماء ، وأن يرتلوا الأدعية قبل النوم وبعد النهوض ، وخلال الاستحمام والأكل ، وبعد الخروج من

(١) انظر فقرة النظام التعليمي في الفصل الثالث .

بيوت الخلاء ، وعند العطاس وحلق الشعر ، وتقليم الأظافر وإضاءة الأسرجة . وغير ذلك من الواجبات . ونظراً إلى أن هذه المهام كانت أخلاقية تخصّ كافة أفراد المجتمع ، فقد كانت مهام التعليم العام تقع على عاتق رجال الدين على الرغم من أنها كانت تتناول تدريس المعارف العامة إلى جانب التعليم الديني الخاص[1] .

سادساً ـ الإدارة المالية

وكانت من أبرز الإدارات التي اهتمّ بها أردشير الأول لما لها من أهمية في مستقبل الدولة التي عمل على تأسيسها . وقد أسند أمر إدارتها إلى موظف كبير حمل لقب وستريوشانسلار ، ويعني كبير المزارعين . وهو أمر يجعلنا نعتقد أن أول الضرائب التي جبيت في دول الهضبة الإيرانية كانت تفرض على المزارعين . وربما جعلت هذا الموظف في بدايته مسؤولاً عن إنجاح الزراعة في أراضي الدولة . ولا يعرف تماماً متى أضيف إلى لقب هذا الموظف لقبٌ آخر هو توخش بد ، ويعني كبير الصناع . وهذا يجعلنا نميل إلى الافتراض أيضاً أن ثاني الضرائب فرضت على الصناعة ، ويحتمل على التجارة ، فيما بعد ، لارتباط حرف الصناعة بعملية بيع المواد المصنعة . وكان هذا الموظف يرأس مجموعة من كبار الموظفين الذين توزّعت اختصاصاتهم بين الجباية والمحاسبة وخزن المال ، ويرأسون بدورهم موظفين أصغر ، ينتشرون في ولايات الدولة . وكذلك في أصغر وحداتها الإدارية .

١ ـ عائدات الدولة

كانت الضرائب في الدولة الساسانية تقسم إلى قسمين رئيسيين :

الضرائب العقارية وهي التي فرضت على الأراضي والبيوت .

والضرائب الشخصية وهي التي كانت تفرض على الأشخاص وأنشطتهم المتعددة . وكانت هذه الضريبة تحدد كما الضريبة العقارية بمبلغ محدد يدفعه المواطن سنوياً حسب

نشاطه الصناعي أو التجاري أو مساحة أرضه وخصوبتها ، وتتراوح عادة بين ثلث وسدس الدّخل الذي يحصل عليه المواطن من عمله .

ولما كان تقدير دخول الأفراد ومراقبة أعمالهم أمراً في غاية الصعوبة ، فقد زخرت مصادرنا بحوادث الجور والتّعسف التي كان يقوم بها الموظّفون ، والتي كانت تتفاقم أحياناً حسب السنين الخيرة أو العجيفة التي كانت تمر بها الأنشطة الاقتصادية كل سنة . يضاف إلى ذلك حالات الحرب المفاجئة التي كانت الدولة تضطر فيها إلى فرض ضرائب استثنائية ، وأهمها السُّخرة التي كان عبؤها يقع غالباً على الفلاحين الذين استوطنوا الأقاليم الغربية الغنية ، خاصة منطقة الرافدين ، وهو أمر كانت المبالغة فيه تضطر بعض الملوك إلى إصدار إعفاءات ضريبية كاملة[١] أو جزئية تجنّباً لثورات الشعب ، أو تقرّباً من بعض فئاته في حالات خاصة أو في مناسبات القحط الشديد أو ارتقاء الملوك عروشهم .

وكانت الأعياد تعدُّ مناسبات يقدم فيها أفراد الشعب هدايا قسرية إلى الملك ، خاصة في عيدي النّيروز والمهرجان ، وتعدُّ هذه ضرائب تضاف إلى خزينة الملك ، الذي كان يتمتع بدخل أملاكه الهائلة التي تضم غلات الأراضي الزراعية ، ومناجم المعادن ، وأخشاب الغابات ، إضافة إلى غنائم الحروب ، وعائدات الجمارك المفروضة على التجارة مع الدول المجاورة ، وأهمها بيزنطة وأرمينية والصين والهند وبلاد العرب .

٢ ـ نفقات الدولة

وقد توزّعت على قسمين رئيسيين : نفقات داخلية ، وهي ما كانت الدولة تدفعه على شكل رواتب للموظفين ، ونفقات الملك ، ونفقات الأشغال العامة ، كبناء المدن ، وشقّ الطرق ، وحفر الأقنية ، وبناء الجسور وصيانتها ، وتقديم الهدايا والهبات للفقراء والمساكين ، وتكاليف الأعياد ، وغير ذلك من النفقات الداخلية .

---

(١) تذكر المصادر أن الملك بهرام الخامس أعفى الشعب من الضرائب المستحقة التي لم تحصل وبلغ مقدارها سبعين مليوناً . كما أعفى الملك فيروز أثناء القحط كل ضرائب الخراج والجزية والسخرة وأعباء أخرى .

ونفقات خارجية ، وهي التي كانت الحرب تستهلك الجزء الأكبر منها ، إضافة إلى نفقات البعثات الدبلوماسية وهداياها ، التي كانت في معظمها باهظة جداً ، وكذلك الجزيات وغرامات الحرب التي كانت تدفعها الدولة إثر هزائمها ، ، أو دفعاً لأذى بعض القبائل المشاكسة التي لم يكن باستطاعة الدولة القضاء على خطرها لأسباب مختلفة .

سابعاً ـ إدارة الأقاليم

وكان كل حاكم من حكام الأقاليم يحملون لقب ساتراب ، أو مرزبان ، كما يحمل بعضهم لقب شاه ، ويمثّلون الملك في أقاليمهم . وقد تفاوتت أهمية هؤلاء بتفاوت أهمية الساترابيات التي حكموها من الناحية البشرية والاقتصادية وقربها أو بعدها عن العاصمة أو عيون الملك . وكانت سيطرة الدولة على الساترابيات البعيدة سيطرة نظرية ، وأحياناً معدومة ، خاصة في حالات النزاعات الحدودية مع الدول المجاورة . في حين لم يكن لبعض الساترابيات أهمية كبيرة ، لدرجة أنه لم تكن لها حدود ثابتة ، ومع ذلك فقد كانت أهم الساترابيات في الدولة الساسانية هي آشورية ، وميدية ، وبارثية ، وفارس ، وكرمانية ، وصغديانا ، وسجستان . ويحكمها حكام يتمتعون بثقة الملك الكبرى . وكان هؤلاء الحكام يختارون من بين نبلاء الحاشية الملكية ويسمح لكل منهم ببناء قصر له في العاصمة ، والجلوس على عرش من الفضة ، وأحياناً من الذهب كعرش الملك نفسه . ويرأس هؤلاء الحكام في ولاياتهم مجموعة من كبار الموظفين العسكريين والماليين والإداريين في عاصمة الساترابية ، والذين يرأسون بدورهم مجموعة من الموظفين الأصغر في العواصم الصغرى التي تنقسم إليها الولاية ، والتي كان يطلق عليها اسم أستان ، والتي تنقسم بدورها إلى وحدات إدارية أصغر تحمل اسم كورة أو شهر ، وعاصمتها شهرستان ، والتي تشرف على شؤون مجموعة من القرى الصغرى ، وهي أصغر الوحدات الإدارية في التقسيم الإقليمي الساساني .

ثامناً ـ إدارة المراسلات

وهي الإدارة المسؤولة عن إصدار الأوامر ، وإرسال الرسائل ، وتلقي البلاغات والأجوبة في داخل الدولة وخارجها ، والتي شكّلت عصب الدولة وشرايينها ومفاصلها ، وكانت إحدى أبرز الإدارات التي اعتنى بها أردشير الأول ، لأنها ترمز إلى وحدة الدولة وهيمنة الإدارة المركزية في الداخل ، وصورتها وقوتها في الخارج . وكان يرأس هذه الإدارة موظف كبير يحمل لقب إيران دبيربد أو دبيران مهيست ، ويبدو أن شاغل هذا المنصب الكبير لم يكن رئيساً فقط لإدارة كتّاب الدولة ، بل وزيراً للخارجية إلى حدٍّ كبير ، حيث كان مسؤولاً عن مراسلة الدول الصديقة والعدوة والمشاركة في المفاوضات معها . ويبدو أن ولع أردشير الأول والملوك الذين خلفوه بشكل المراسلات أدى إلى عنايتهم بصياغة رسائلهم إلى معاصريهم من الملوك ، إضافة إلى ولاتهم وموظّفيهم صوغاً جميلاً تختلط فيه بالمعلومة المراد نقلها إلى المخاطب نبذٌ من أقوال الحكماء والأشعار والألغاز ، وتراعي فيها الفوارق بين المرسل والمرسل إليه . وكان الملك يستعين بأرباب الحكمة والثقافة في مجلس كثير الانعقاد من أجل الاتفاق على أجوبة على رسائل الولاة في الداخل أو الملوك في الخارج . ويفسر الكاتب نظامي عروضي في كتابه (جهار مقالة) هذه الاهتمامات بقوله : « إن الكاتب العاقل والأديب الفاضل هو جمال للمُلْكْ وأعظم رفعة وفخراً للمَلِكْ » ، ويضيف في وصفه لأهمية الكتابة والمراسلات قوله : « إن الكتابة صناعة تتضمن قياسات خطابية وبلاغية ، ينتفع الناس بها في محاوراتهم ومشاوراتهم ، وحتى مخاصماتهم في المديح والذّم ، والاستعطاف والاحتيال ، والإغواء والإغراء ، وتكبير الصغائر ، وتصغير الكبائر ، والتّصرف في حالات العتب والاعتذار ، والتّذكير بالسوابق . ولهذا دأب الملوك على اختيار كتّابهم بحيث يتوافر فيهم كرم الأصل ، وشرف العرض ، ودقّة النظر ، وعمق الفكر ، والأدب الجم ، والمنطق ومعرفة مقادير الناس ، والزهد بمغريات الدنيا . وعلى هذا كان على الكتّاب إملاء وثائق ومراسلات الدولة وصياغة الأوامر الملكية ، وتنظيم الضرائب ، وقوائم

الحسابات ، وعليهم مراعاة الظروف عند الكتابة لأصدقاء الدولة أو لأعدائها ، وتقدير قوتهم إذ إنه في حالات تغيير المواقف السياسية كان الكاتب هو الضحية الذي يدفع الثمن ، فقد ذكرت المصادر أن سابور الأول قتل بيده كاتب أرطبان آخر الملوك البارثيين ، لأنه كان قد كتب رسالة مهينة إلى والده أردشير الأول عندما كان يؤسس دولته في إقليم فارس ، وتجدر الإشارة إلى أن البلاط الساساني ضمّ بين كبار كتّابه كاتباً اختصّ بالمراسلات مع القبائل العربية المجاورة للدولة الساسانية ، والذي يرجح أنه كان من عرب الحيرة حلفاء الساسانيين في تلك الفترة . كما يعتقد أن حملة أختام الملك ورؤساء ديوان الأخبار وأمناء سجلاّته الخاصة كانوا يعدّون بين كبار موظفي إدارة المراسلات . وأنهم في معظمهم كانوا يتعرضون للتغيير عند ارتقاء ملك جديد العرش ، مثلهم في ذلك مثل باقي موظفي البلاط الذين يشكّلون الدائرة الضيقة التي يأمنها الملك ويأتمنها خلال فترة حكمه .

تاسعاً ـ إدارة الشؤون الحربية

اعتمد أردشير الأول منذ إقامة دولته نظاماً عسكريّاً يقضي بأن يكون على رأس القوات المسلحة قائد واحد ينوب عن الملك في تصريف الأمور العسكرية . وقد استمرّ العمل بمقتضى هذا النظام حتى زمن كسرى الأول ، الذي أجرى تعديلاً كبيراً على هذا النظام . وقد حمل هذا القائد لقب إيران سباهيد[1] أو إيران اصبهيد ، ويعني (بطل إيران) . ويبدو من استقراء الروايات التاريخية أن الصلاحيات المعطاة لهذا القائد كانت أكبر مما يدلّ عليه لقبه ، فقد كان وزيراً للحرب في حالة السّلم ، وقائداً أعلى للجيش في حالة الحرب ، والمفاوض السياسي والعسكري الأول بعد الحرب . ومع أنه بموجب هذه الصلاحيات كان مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن تنظيم وتدريب وتسهيل

(١) يذكر الطبري أن قائداً يحمل لقب أرتشتانسلار كان في عهد الملك قباد الأول يفوق إيران سباهيد في الأهمية والرتبة العسكرية ، ويعني اللقب رؤساء المحاربين ، ولكن اختفاء اللقب بعد عهد الملك قباد الأول يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا اللقب كان لقباً آخر لقائد الجيش .

أمور وإمداد وقيادة الجيش الإمبراطوري . يشهد على ذلك عضويته في مجلس الملك الاستشاري الدائم ، فإن بعضاً من الشواهد المعاصرة تشير إلى أن كبير الوزراء هزاربد كان بإمكانه التّدخل في شؤون قائد الجيش بموجب صلاحياته الواسعة غير المحددة بدقة . كما تشير حوادث أخرى إلى أن شغف بعض ملوك الدولة بالمشاركة في أعمال الحرب بصفة شخصية في بعض الحالات أدى إلى تراجع أهمية هذا القائد في عهد الملوك المحاربين في الوقت الذي كانت تتعاظم فيه أهميته في عهد الملوك غير المحاربين . يضاف إلى ذلك أن بعض مصادرنا ، وبشكل خاص الدينوري ، تذكر : أن بعض الملوك كانوا يعهدون إلى قائد يحمل لقب سباهيد فقط بقيادة الجيوش في بعض المعارك دون أي ذكر لقائد الجيش ، إضافة إلى قيام رئيس الكتاب دبيران دبير أو غيره بمثل هذه المهمات بتكليف خاص من الملك . ويبدو أن هذه الحالات كانت خاصة بفترات شغور منصب قائد الجيش أو عدم كفايته الحربية في نظر الملك أو مستشاريه ، أو عقوبة كان الملوك يوجّهونها لقادتهم العسكريين في مناسبات معينة ولفترات قصيرة بالتأكيد .

ولا يمكن في الواقع تبين العلاقة بين قائد الجيش وقائد الحرس الملكي الذي حمل لقب بشتيكانسلار ، وهل كان الأخير يتبع الأول أم كان يتبع الملك مباشرة ، وإن كان من المرجح أنه كان يتبع الملك ، حيث تذكر المصادر أن قادة الحرس الملكي كانوا يتلقّون أوامر الإعدام من الملك شخصيّاً ، وهو أمر يسحبه الطبري تاريخيّاً إلى أوائل العصر العباسي ، حيث يذكر أن قائد حرس الخليفة كان يقوم بمنصب الجلاد . وفي هذا المجال لا يُعرف شيء عن نظام خاص للشرطة في العصر الساساني ، وهذا يدفعنا إلى القول أن الحرس الملكي كانوا يقومون بمهمات رجال الشرطة في العواصم الملكية في حين يقوم رجال الجيش بهذا الدور في المدن والأقاليم البعيدة .

الفصل الثاني
العقائد والأفكار الدينية وتطورها

مقدمة

يميل معظم مؤرّخي الفترة الساسانية إلى الاعتقاد بأنه إذا كان لهـذه الفترة أن تزهو عن غيرها من فترات التاريخ الإيراني القديم ، فلها أن تزهو بما قدمته من عقائد وأفكار دينيـة متعـددة كان لهـا أكبر الأثر في تخليـد جـانب هـام من جـوانب التراث الفكري الإيراني قبل الإسلام ، خاصة أن هذه العقائد خلدت عقائد أقدم منها أو مجاورة لها بعد تطويرها لدرجة أصبحت فيها المعالم الفكرية الهامة في هذه المنطقة تنحصر في عـدد من الديانات والمذاهب .

ولهذه الديانات والمذاهب أهمية خاصة بالنسبة إلى الدراسات الإسلامية ، المتـأخرة منهـا على وجـه الخصوص ، خـاصـة فيا يتعلق بفكر الزنـادقـة خلال العصر الإسـلامي المتأخر ، وهو أمر يبدو غامضـاً في التراث الإسلامي ، وبشكل خـاص فيا خلفـه أفضل المتناولين لهذه القضية ، وهو الشهرستاني ، في كتابـه الشهير (الملل والنّحل) . وسنلمس في استعراضنا لهذه المذاهب والديانـات مـا يفيـد في توضيح مـا استبقى الإيرانيون بعـد إسلامهم من أصول مذهبية فارسية قديمة . كما سيوضح القلق والضيق والتّبرم الـذي شعر به الإيرانيون النصـارى قبل الفتح الإسلامي ، وذلـك بنتيجـة التّخبـط بين سيـاسـات الاضطهاد أو التّسامح التي اتّبعها معهم ملوك الدولة الســاسـانيـة ، وكـذلـك الخلافـات المذهبية التي استعرت بين نصارى المنطقة وامتدادها إلى نصارى إيران الذين عانوا منهـا أشد ما تكون المعاناة ، وهو الأمر الذي مهّد السبيل إلى سرعة انتشار الإسلام بين ظهراني هذه الأمة .

أولاً ـ الزرادشتية (Zoroastrianism)

وتنسب هذه الديانة إلى المصلح زرادشت (Zoroaster)[(١)] ، الذي اختلف المؤرّخون حول الزمن الذي عاش فيه ، والمنطقة التي استقرّ فيها ، واللغة الأولى التي كتب فيها كتابه المقدّس (الأوستا) . وإن كانت الآراء تميل الآن إلى أن زرادشت ولد في أواسط القرن السابع ق.م ، ومات في أوائل القرن السادس ، وأنه عاش معظم حياته في إقليم ميدية ، وسط إيران ، وأن لغة الأوستا الأولى كانت اللغة الميدية . وأن الأوستا الموجودة بين أيدينا لا تشكّل إلا ربع الأوستا الأولى التي انقرضت بزوال الاهتمام بها بعد انتشار الإسلام ، وكذلك بعد إحراق الإسكندر أصولها الأولى في قصر الملك أكسركس[(٢)] ، بعد انتصاره على دارا الثالث نحو سنة (٣٣٠ ق.م) . ويعتقد أن بعض العلماء[(٣)] من مرافقي الإسكندر حصلوا على نسخة من هذا الكتاب ، وترجموا أقسامها العلمية الخاصة بالطب والعلوم والفلك إلى اليونانية ، وأهملوا ما عداها إلى أن اندثرت أقسام كبيرة منها .

ومع ذلك تذكر المصادر أن الملك أردشير الأول عندما نجح في القضاء على الدولة البارثية أمر كبير وزرائه المدعو تنسر بجمع متون الأوستا المتناثرة في كتاب واحد[(٤)] . وأضاف ابنه سابور الأول إلى هذه الشذرات أقساماً علمية معتمداً على ما حصل عليه من

---

(١) لا يعرف يقيناً معنى كلمة زرادشت ، ويغلب على الاعتقاد أنها مشتقة من كلمة زرتشتر ، وتعني الجمل الأصفر .

(٢) أكسركس (Xerxes) هو الملك الفارسي الذي غزا بلاد اليونان في الحروب الفارسية (٤٩٠ ـ ٤٧٨ ق.م) ، وخرّب أثينا العاصمة اليونانية مرتين ، كما أحرق معبد إيساجيلا (E. Sagila) البابلي .

(٣) يعدُّ الإسكندر أول ملك في التاريخ اصطحب معه عدداً كبيراً من العلماء في معظم الاختصاصات . وكان جلّ هؤلاء العلماء من تلاميذ الفيلسوف البارز أرسطو ، الذي كان أستاذاً أيضاً للإسكندر .

(٤) تذكر المصادر الفارسية أن أردشير الأول أطلق على تنسر بعد إنجازه جمع متون (الأوستا) لقب (يوريوتكيش) تكريماً له على هذا العمل ، ويعني اللقب حافظ دين الآباء .

الترجمة اليونانية السابقة الذكر للأوستا ، وتمّ الاعتراف بهذه الاوستا الجديدة كتاباً مقدّساً للزرادشتية ودستوراً للدولة الساسانية .

١ ـ حياة زرادشت

اعتماداً على الأخبار والروايات الدينية الزرادشتية ، يمكن القول : إن زرادشت ولد في إحدى مدن إقليم ميدية وسط إيران ، لأب كان يدعى باورشسب ، وأم تدعى دوغد ، وأنه كشف في بداية شبابه عنّ قدرات إعجازية خارقة ، أدّت إلى استعداء الكهان والسحرة وكاشفي الغيب الذين اضطروه إلى اعتزال مجتمعه في العشرين من عمره ، والانصراف إلى التأمل والارتحال باتجاه الأقاليم الشرقية . وعندما بلغ الثلاثين من العمر جهر بدعوته في إقليم سجستان في الشرق الإيراني ، لكنه لم يلق نجاحاً يذكر ، مما اضطره للجوء إلى ملك إقليم باكترية شمال شرق إيران ، الذي أجاره وحماه ، وساعد على نشر دعوته في معظم إيران وشمال الهند وآسية الصغرى . وتضيف الروايات الزرادشتية أن زرادشت قتل في إحدى معاركه ضدّ قبائل الهيون الذين كانوا يناوئون دعوته الدينية .

٢ ـ ديانة زرادشت

وتعدُّ ديانة زرادشت تطوراً حضاريّاً للديانات الأسبق التي تقدس قوى الطبيعة ، وعلى رأسها الشمس ، التي عبدتها معظم المجتمعات القديمة ، وبشكل خاص البابليون والمصريون . وقد استمرّ تقديس الشمس في ديانة زرادشت باعتبارها رمزاً لإله الخير (أهورا مزدا)[١] ، وهو العدو الطبيعي لإله الظلام (أهريمان)[٢] .

---

(١) يعتقد فقهاء اللغة البهلوية الساسانية أن كلمة (أهور) في الأصل هي (أسور) ، وهو اسم إله الآريين من الهنود الأوربيين عندما كانوا يعبدون إلهاً واحداً ، أما كلمة (مز) فتعني العالم ، وبهذا يكون معنى الكلمة أهورا مزدا (إله العالم) مع بعض التحريف .

(٢) الاسم الأول لهذا الإله كان (أنكرمينيو) ، وتعني (الطبيعة الموحشة) أو (الضير) ، ولا يعرف كيف تحولت بمرور الزمن لتصبح أهريمان .

وتذكر أسطورة الخلق الزرادشتية أنه في الأصل كان هناك إله قديم يدعى (زروان) ويعني الزمن[١] ، وأنه بقي نحو ألف سنة يقدّم القرابين لإله أقدم منه من أجل أن يرزق بولد يطلق عليه اسم (أهورامزدا) . ولكن المدة طالت دون أن يرزق بأولاد ، مما دفعه للشّك في جدوى القرابين التي كان يقدّمها ، وفجأة ظهر له في بطنه[٢] ولدان ، نذر أن يطلق على أولهما قبل ولادتها أهورامزدا لأنه قدّم القرابين للإله زروان ، وعلى ثانيهما أهريمان لأنه شكك بما كان يفعل .

وتعهّد أمام نفسه أن يهب ملك الدنيا للمولود الأول ، وعندما سمع أهريمان بهذا التّعهد شقّ بطن والده وخرج مطالباً بتحقيق العهد ، فسأله أبوه من أنت ، فأجابه : أنا ابنك أهريمان ، فقال زروان : « إن ولدي يجب أن يكون ذكي الرائحة نوراني الشكل ، أما أنت فرائحتك عفنة وشكلك ظلماني » .

وفي تلك اللحظة ولد التّوأم الثاني أهورامزدا ، واعترف زروان بأبوّته له فوراً ، وقرّبه منه ، مما أدى إلى إغاظة أهريمان وبداية الخلاف بين الإلهين التّوأمين . وبعد سلسلة من المعارك التي استعرت بينهما اتّفقا على تقاسم حكم العالم مدة اثني عشر ألف سنة ، وهي عمر العالم بحسب زرادشت ، وتكون ثلاثة الآلاف سنة الأولى فترة هدوء يعيش فيها الإلهان متجاورَين في جانب واحد من الجوانب الأربعة ولا متناهيين في أبعاد ثلاثة ، وكان عالم النور في الجانب الأعلى وعالم الظلمة في الجانب الأسفل . وعندما بدأت ثلاثة الآلاف الثانية افتعل أهريمان حرباً ضدّ توأمه بدعوى أنه أغراه بحرب مدّتها تسعة آلاف سنة دون أن يقول له : إن نهايتها ستكون لصالح أهورامزدا[٣] . وعندما

(١) جدير بالذكر أن أقدم إله للإغريق كان يدعى خرنوس (Chronos) ، ومعناها الزمن ، وهناك خلاف بين المؤرخين المعاصرين حول التأثر والتأثير بين الديانتين كما هو بين الأساطير .

(٢) يلاحظ هنا أن الأسطورة الزرادشتية الأولى جعلت زروان كائناً بين الذكر والأنثى ، في حين أن بعض الروايات الأحدث تجعلها أنثى ولدت توأميها بدون زواج أو عن طريق زواج مجهول الأب .

(٣) جدير بالذكر أن أهورامزدا كان إله المستقبل ومعرفة الغيب ، وأهريمان إله الماضي ، وأنه لهذا السبب وقع في شرك أخيه لعدم معرفته بنتيجة الحرب .

انتهى أهورا مزدا من خلق الإنسان الأول (كيومرد) ، ويعني اسمه الحياة الفانية ، وأقام خندقاً أمام السماء لحمايته من أهريمان ، بدأ أهريمان محاولاته لقتل الإنسان الأول ، ونجح في ذلك لكن بذور الإنسان كانت مخبأة في الأرض التي أخرجت من هذه البذور شجرة بعد أربعين سنة خرج منها أول زوجين من بني البشر ، وبدأ منذ ذلك الوقت الاختلاط الجنسي الذي كانت بدايته نجسة ونهايته طهارة[١] .

ونظراً لهذا الازدواج بين الخير والشّر في أخلاقية البشر ، فقد بدؤوا يلعبون دوراً في الصراع بين قوى الخير والشّر ، وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى أهورامزدا أو أهريمان . وبعد مرور ثلاثة آلاف سنة على خلق العالم زادت شرور الناس لدرجة أرسل فيها أهورامزدا نبيّهُ زرادشت لهداية الناس ، وهو أمر أصبح تقليديّاً ، حيث يظهر كل ألف سنة من الثلاثة آلاف السنة الأخيرة من عمر البشرية نبي مخلّص يولد من بذور زرادشت التي تكون مخبأة في إحدى البحيرات المقدسة . وعندما يولد آخر المخلّصين من أبناء زرادشت تبدأ المعركة النهائية بين قوى الخير والشّر ، وتشتعل الأرض بفعل سقوط النجم المذنب ، وتصبح وكأنها سيل ملتهب ، ويضطر بنو البشر من الأحياء أو من الأموات الذين يبعثون إلى اجتياز هذا السّيل ، حيث يجتازه الأخيار بسهولة في طريقهم إلى الجنة الموعودة ، ويسقط الأشرار والشياطين إلى الجحيم ، ويتبع ذلك تبرد الأرض من جديد بعد تطهرها ويعيش المؤمنون في سلام لا يعكره مكروه .

وقد أضاف رجال الدين فيما بعد إلى أسطورة الخلق هذه مجموعة أساطير تشرح مولد الأجرام السماوية ، ونشوء الرغبات والغرائز عند الإنسان ، والاعتراف بالمعبودات الرئيسية في الديانة الزرادشتية ، واتّصال هذه المعبودات بالآلهة المجاورة ، واعتماد التقاويم المحلّية والإقليمية التي يعتمد عليها في تحديد الأعياد الدينية ، والاحتفالات بها في معابد النار .

---

(١) البداية هي في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة والنهاية هي ولادة الإنسان .

٣ ـ عبادة النار

ولا يعرف في الواقع على وجه التحديد العلاقة التي ربطت بين تقديس الشمس[١] وعبادة النار في الديانة الساسانية ، اللهم إلا في قدرة الشمس والنار على التّطهير من الدّنس . وفي قدرة الإنسان على إشعال النار كرمز من رموز حرارة الشمس التي لا يستطيع الإنسان التحكم بها كما النار . وعلى كل فقد عثر المؤرخون والآثاريون على بيوت نار متعددة من عصور تعود إلى القرن السابع ق.م ، مع أن أبرزها يعود إلى العصر الساساني ، وخاصة تلك التي أشارت إلى وجودها الروايات التاريخية مثل بيت النار ، الذي أطلق عليه (أناهيتا) في مدينة برسبوليس (إصطخر) ، والذي كان جدّ أردشير الأول كاهنه الأكبر في أواخر عهد الدولة البارثية[٢] ، والذي حوّله المسلمون فيما بعد إلى مسجد ، وغيره من بيوت النار التي ورد ذكرها في المصادر ، لكنها خرِّبت بعد انتشار الإسلام . وتذكر الروايات وتقارير البعثات الأثرية أن بيوت النار كانت تشيد ثمانية الشكل ، ولها عادة ثمانية أبواب من ثمانية أركان تنتهي إلى ثمانية[٣] أبهاء ، تؤدي بدورها إلى قدس الأقداس المغلق الذي توقد فيه النار المقدسة . وذلك بناء على تعاليم زرادشت بعدم وصول أشعة الشمس إلى النار ، وهو أمر لا يتماشى مع افتراضنا للعلاقة الحمية بينهما ..!! وكانت النار المقدسة توقد في أواني معدنية كبيرة محمولة على أرجل ، أو ترتكز على عمود ضخم على شكل مصطبة مرتفعة .

وكانت الديانة الزرادشتية تفرق بين خمسة أنواع من النار :

---

(١) كان القسم الملكي الأشهر في التاريخ الساساني هو القسم بالشمس التي تنير الدنيا بأشعتها وتدفئ المخلوقات بحرارتها ، وتنضج الثمار بضيائها ، لصالح البشر والحيوان .

(٢) انظر تفاصيل استيلاء أردشير الأول على السلطة من البارثيين في الفصل الأول من القسم السياسي لهذه الدراسة .

(٣) اعتماد الرقم ثمانية غير مبرر في أصول الديانات الزرادشتية باستثناء ما يتوقع من مضاعفة (الترابيع) الزروانية المتعلقة ببداية الخليقة .

نار المعابد وهي مقدسة يحصل المؤمنون على جذوات منها لإيقاد نيرانهم الخاصة في البيوت .

ونار الجسد وهي نجسة وتوجد في الإنسان والحيوان .

ونار النبات وهي طاهرة تشتعل عند إحراقها لتخليد أهورا مزدا .

ونار السحاب أو الصاعقة ، وهي التي تقدم إلى أهورا مزدا في جنة الخلد .

وأخيراً النار المجسمة وهي أقدس النيران وتسمى (آذور) ، وأحياناً ابنة أهورا مزدا ، ويبدو أنها نار جنات الخلد التي يغمر نورها المؤمنين في الجنة الموعودة .

وتعدُّ مهمة إيقاد النار باستمرار مع حرق البخور ، وترتيل الأدعية ، خاصة في أوقات الصلوات الخمس اليومية ، من أهم الأعمال التي يقوم بها رجل دين من مرتبة متوسِّطة ، هربدان على الأقل ، ويصاحب توقد النار في المناسبات الدينية ، والاحتفالات والأعياد ، والمهرجانات ، وإنشاد المتعبِّدين ورجال الدين الأغاني الدينية المعينة والتّرانيم المصحوبة بألحان موسيقية .

وتذكر الروايات الفارسية ثلاثة بيوت شهيرة للنار :

أولها ويدعى آذرفربغ أي نار فربغ ، ويختلف العلماء حسب القراءات في تحديد مكان وجوده بين منطقة مدينة كابول في إقليم أفغانستان ، وبين مدينة كاريان في إقليم فارس جنوب إيران .

وثانيها ويدعى آذر كشنسب أي النار الملكية ، ويقع معبدها الرئيسي في مدينة كنجك في إقليم آذربيجان شمال شرق مدينة الموصل وجنوب غرب بحر قزوين .

وثالثها ويدعى آذر بورزين مهر ، أي معبد نار الفلاحين ، ويقع في منطقة مدينة نيسابور أقصى الشمال الشرقي للهضبة الإيرانية . وقد نسب إنشاء هذه البيوت

لأبطال خرافيين مما أدى إلى تمتع هذه البيوت بقدسية وأهمية فائقة كرّستها الهبات الهائلة التي كانت تنهال عليها من الملوك والمواطنين تبرُّكاً وتعظيماً . ومن نيران هذه البيوت كانت بيوت النار الأصغر تحصل على نيرانها .

٤ ـ التقويم والأعياد الزرادشتية

وكمعظم الأمم القديمة احتفل الفرس في العصر الساساني وقبله بمجموعة من الأعياد ذات الأصول الزراعية ، حيث كان المزارعون يحتفلون بأعياد حصاد القمح ، وقطف العنب ، وجمع الزيتون ، وجني العسل ، وغيرها من الأعياد التي جرى ربطها بالتاريخ الأسطوري للأمة . وقد اعترفت الزرادشتية بهذه الأعياد ، وأضفت عليها مراسم ذات صفة دينية لشدّ الناس إلى ديانتهم . كما ربطتها بتقويم ديني قسم السنة إلى اثني عشر شهراً[١] ، أطلقت على كل واحد منها اسماً مشتقّاً من اسم أحد الآلهة ، وقسم الشهر إلى ثلاثين يوماً ، ويختلف المؤرخون المعاصرون حول معرفة الساسانيين تقسيم الشهر إلى أسابيع .

ويذكر المؤرخ البيروني في كتابه (الآثار الباقية) الذي يعتبر أفضل مصادرنا العربية عن الأعياد والتقاويم الساسانية ، أن الفرس كانوا يحتفلون في تلك الأيام بستة[٢] أعياد موسمية رئيسة كان آخرها يدعى (بثائديه) وهو (عيد الموتى) ، ويغطي خمسة الأيام التي كان الفرس يضيفونها إلى (٣٦٠ يوماً) التي هي حصيلة ضرب عدد الأشهر بعدد أيام الشهر (٣٠×١٢) لكي تكتمل السنة الشمسية . ويبدو أن الفرس في العصر الساساني كانوا يضيفون شهرين إلى أشهر السنة كل (٢٤٠ سنة) لاكتمال دورة

(١) وهذه الأشهر هي بالترتيب : فروردين ، أردوهيشت ، خورداذ ، تير ، مرداذ ، شهريور ، مهر ، أبهان ، آذار ، دار ، بهمن ، أسبندارمز .

(٢) وهذه الأعياد هي (ميديوي زرميه) في الشهر الثاني و (ميديوي شام) في الشهر الرابع ، و (بايتيشو هيه) في الشهر السادس ، و (أياثريمه) في الشهر السابع ، و (ميدياي ريه) في الشهر العاشر على الغالب .

الشمس ومطابقة الأعياد الزراعية على مواسمها ، كما حصل في أيام الملك يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠) ، حيث أضاف الكهنة بموافقة الملك شهرين دون تسمية بعد الشهر الثامن (أبهان) . كما يبدو أن الفرس قبل العصر الساساني كانوا يبدؤون أشهر السنة في فصل الخريف ، لكنهم بعد اتصالهم بالرومان استبدلوا فصل الربيع بالخريف . والثابت من تتبع تقويم الهضبة الإيرانية أن الساسانيين اعتمدوا تقويماً دينياً يبدأ مع فصل الربيع جنباً إلى جنب مع تقويم مدني ، وكانت السنة الدينية تكبس كل أربع سنوات . في حين يستبدل التقويم المدني بإضافة شهر إلى أشهر السنة كل مئة وعشرين سنة .

وكان عيد (النيروز) أو (النوروز) أشهر الأعياد الشعبية في إيران الساسانية الذي تعيده بعض الروايات إلى التاريخ الأسطوري للمنطقة ، وما زال الإيرانيون[(١)] يحتفلون به حتى هذه الأيام ، وهو عيد رأس السنة الذي يستمر ستة أيام متتالية ، وفيه يستريح عامة الناس وخاصتهم من العمل ، يحاول فيه الملوك إسعاد رعاياهم ، بالسماح لهم بمقابلتهم دون رسميات ، ويتبادلون الهدايا حيث كان الجميع يغتسلون في أول أيام العيد ويمرحون برش الماء على بعضهم ، ويتبادلون الحلوى ، ويأكلون السكر ، ويلعقون بعض العسل قبل أن يتكلموا ، ويبخرون أجسادهم بثلاث قطع من الشمع للوقاية من الأمراض بعد ذلك أجسادهم بزيت الزيتون .

وكان عيد (المهرجان) من الأعياد الكبيرة التي يحتفل بها في الشهر السابع من أشهر السنة ، إضافة إلى عيد (آذرجشن) أو عيد النار ، الذي يحتفل به في الشهر السادس ، وكذلك عيد (بهارجشن) أو عيد الربيع الذي يحتفل به في الشهر التاسع ، وعيد آخر السنة القديمة ، وعيد الثوم ، وعيد الثور ، وعيد الماء (الاستسقاء) ، وعيد النساء ، وعيد إبادة الكائنات الشريرة ، وغير ذلك من الأعياد التي ارتبطت أساساً بعدد من الحوادث التي وردت في الأساطير القديمة للهضبة الإيرانية .

(١) يحتفل بهذا العيد أيضاً وتحت الاسم نفسه في معظم أقاليم بلاد الشام باعتباره عيد بداية الربيع تماماً كما يحتفل المصريون المعاصرون بهذا العيد تحت اسم (عيد شم النسيم) .

ثانياً ـ المانوية (Manichaeanism)

وهي إحدى الديانات التي انتشرت في عهد ثاني ملوك الدولة الساسانية وهو سابور الأول ، وتعزى نشأتها إلى مصلح يدعى ماني (Mani) ينحدر من أسرة عريقة ، لدرجة أن بعض المصادر تعيد والدته نسباً إلى الأسرة المالكة البارثية نفسها . تذكر الروايات المانوية أنه ولد نحو سنة (٢١٥ م) ، في إحدى القرى التابعة لمدينة بابل الشهيرة على نهر الفرات . ويبدو أن الطفل تأثر بمجموعة المذاهب التي انتشرت في مجتمعه ، لدرجة أنه زعم أن وحياً يأتيه ، وذكر أن هذا الوحي كان يأتيه بصورة ملاك يدعى (التوم = القرين) ، وأنه دعاه إلى الجهر بدعوته ، حيث ادّعى ماني أنه نبي الله في الأرض مثله في ذلك مثل (البد) في الهند ، و (زرادشت) في فارس ، و (عيسى) في فلسطين ، وأن دعوته عامة لكل الناس ، وأنه خاتم الأنبياء .

ورأى ماني في أصول دعوته أن العالم يتكون من قسمين ؛ الأول نور ، والثاني ظلام . ويرأس قسم النور (العظيم الأول) ، ويتجلى في خمسة مظاهر معنوية هي : العلم والحلم والعقل والغيب والفطنة ، أما قسم الظلام فيرأسه (الشيطان) الذي يتجلى في خمسة مظاهر مادية هي : الضباب والحريق والسّموم(١) والسّم والظلمة ، ويلتقي القسمان في جانب واحد من جوانبهما الأربعة ، ويفترقا إلى ما لا نهاية في الجوانب الثلاثة الباقية ، كما في الديانة الزرادشتية . ويتابع ماني في أسطورة الخلق الخاصة بدعوته بأن العظيم الأول جابه إله الظلام عندما هاجمه بدعوة (أم الحياة) أو (والدة الأحياء) للالتقاء به التي دعت بدورها (الرجل القديم) الذي يشار إليه أحياناً باسم أهورامزدا ، وبذلك تكوّن الثالوث الأول في الحياة (الأب والأم والولد) كما في الديانة النصرانية (الأب والابن والروح القدس) ، ومن هذا الثالوث انبثقت الحياة التي جمعت في النهاية في شخص الإنسان كل عناصر الحياة الطيبة والشّريرة التي تساوت في المقدرة

(١) السّموم هي الرياح الشديدة المؤذية لكل مخلوقات الآلهة على الأرض .

بين الروح النورانية والجسد الظلماني ، لدرجة كان لا بدّ معها من تغليب الروح الخير بإرسال الأنبياء الذين كان آخرهم ماني .

وقد جمع تراث أتباع ماني بعد موته ومآثره وعقيدته في كتاب دعي (الكفلايا) الذي تأثرت به معظم الشعوب المجاورة ، والملاحظ أن ماني أراد أن ينشر ديناً لجميع بني البشر فحاول بمهارة فائقة أن يطابق بين مجمل المعتقدات والمصطلحات والآراء المعاصرة باستثناء اليهودية التي رفضها ، فكانت ديانتهَ مزيجاً من الزرادشتية بأساطيرها ، وأسماء آلهتها ، والنصرانية برمزيتها وملائكتها ، والبوذية الهندية بنظرية تناسخها ، والإغريقية بتقسيماتها الاجتماعية .

ولم يختلف ماني في دعوته عن باقي ديانات العالم القديم التي تمسكت بتراتبية المؤمنين بها في خمس طبقات تأتي في مقدمتها طبقة المعلّمين أصحاب الحلم (فريشتكان) وعددهم (١٢) معلماً . وتليها طبقة (المشمسين) أبناء العلم (أبسيسكان) وعددهم (٧٢) . تليها طبقة (القسيسين) أبناء العقل (مهيشتكان) وعددهم (٣٦٠) ، أما الطبقة الرابعة وهي طبقة (الصديقين)[1] أبناء الغيب ، وأخيراً طبقة (السماعين) أبناء الفطنة ، فلم يكن عددهما محدوداً ، إذ إنهم كانوا يمثّلون السواد الأعظم من الناس ، وهم الذين لا قدرة لهم على تحمل الالتزامات الدينية الدقيقة التي يطبقها أفراد الطبقات الأولى ، خاصة في مجال الخواتيم السلوكية ، وهي خاتم الفم (أي الامتناع عن قول الخبيث) ، وخاتم اليد (أي اجتناب القيام بأفعال شريرة) ، وخاتم القلب (أي الابتعاد عن الاستسلام للغرائز والشهوات المحرمة) .

وبناء على ذلك فقد حرم على أفراد الطبقة الرابعة وهم (الصديقون) القيام بأي أعمال أو حرف أو مهن والسعي وراء الثروات ، وكذلك حرم عليهم الزواج ، وأكل لحم الحيوان والطير ، وطبخ الخضار وشرب الخمر ، وسمح لهم فقط بامتلاك غذاء يوم واحد

(١) تذكر بعض المراجع أصلاً للكلمة (زنديق) بمعنى كافر بالعربية أنها مشتقة من كلمة صديق ، وهي إحدى مراتب الكهنوت في المانوية .

وكساء لمدة سنة . وطلب إليهم التجوال في بلاد الله الواسعة لحثّ الناس على الاستقامة والفضيلة . أما أفراد الطبقة الخامسة وهم (السمّاعون) فكانوا أقل زهداً في تكاليفهم الدينية ، حيث كان يسمح لهم بالعمل ويرخص لهم بأكل لحم الحيوان والطير شريطة ذبحه بأيديهم ، وأن يتزوجوا ، وأن يقدّموا خدماتهم للصديقين ، خاصة في تقديم الطعام وطبخ الخضار وغيرها من أمور الحياة الدنيا .

أما بقية المؤمنين بالديانة المانوية من خاصة رجال الدين وعامة الناس فكانوا يصومون أسبوعاً كل شهر بالامتناع عن الطعام من الصباح إلى المساء[1] ، ويصلّون أربع مرات يومياً بالسجود اثنتا عشر مرة في كل صلاة بعد الوضوء بالماء أو بالتراب . وكان يوم الإثنين هو يوم الراحة بالنسبة للصديقين ، في حين كان السمّاعون يعطلون يوم الأحد . وقد عرفت الديانة المانوية الزكاة ، وذلك بتقديم الطعام والكساء والنقود إلى المحتاجين من أتباع الديانة ، في حين كانوا يمتنعون فقط عن تقديم الطعام إلى غير المانويين ، ويقدمون لهم غير ذلك من أنواع الزكاة ، ويبررون ذلك بأن الطعام يحتوي على ذرات نورانية يجب ألا تصل إلى الكفار ، في حين أن الكساء والنقود ليست كذلك .

ويبدو أن النجاح الكبير الذي أحرزته دعوة ماني كان مبرراً في أمرين :

أولهما الإطار التوفيقي الذي قدم ماني دعوته من خلاله .

وثانيهما الدعم السياسي والمادي الذي حظي به بعد لقائه بالملك سابور الأول بن أردشير نحو سنة (٢٤٢ م) ، حيث يذكر ابن النديم أن ماني ألقى أول خطبة سياسية دينية يوم الأحد الأول من نيسان (أبريل) من ذاك العام ، وكان يوم تتويج سابور .

(١) انتشرت في فترة متأخرة من تاريخ الدولة الساسانية فتوى من بعض رجال الدين الزرادشتي والمانوي تقديم كفارة بدل الصوم ، ومفادها إطعام عدد من الفقراء ، وذلك لأن الصوم يضعف المؤمن فلا يتمكن من تقديم خدماته إلى العظيم الأول إله الخير .

وكان قد تعرف من قبل على أردشير مؤسس الدولة ، ولكنه لم يحظَ بتأييده ، وعندما قام بجولة في بلاد الهند يدعو إلى ديانته الجديدة ، سمع بوفاة أردشير ، فعاد إلى العاصمة طيسفون ، ليجرب حظّه مع ابنه الذي حماه وآمن به مع اثنين من إخوانه هما مهرشاه وفيروز[١] . ورداً على هذا العطف فقد أهدى ماني إلى سابور أحد كتبه الذي أطلق عليها عنوان (سابور غان) ، والذي ذكر فيه علاقته بالملك المذكور وحمايته له . ويبدو أن هذه الحماية وهذا الإعجاب لم يستمر طويلاً ، إذ تذكر إحدى الروايات أن جفاء حصل بين ماني وسابور اضطر ماني إلى الابتعاد عن الأنظار فترة بلغت نحو اثنتي عشرة سنة قضاها متجوّلاً بين الهند والصين داعياً لمذهبه حتى موت الملك (٢٧٣ م) ، وتسلّم ابنه هرمزد الأول ، حيث عاد ماني وحظي برعاية هذا الملك الذي لم يحكم لسوء حظ ماني أكثر من سنة واحدة ، تولى بعده أخوه بهرام الأول الذي لم يكن على علاقة طيبة بماني ، فدعاه إلى مناظرة دينية مع (الموبدان موبد الزرادشتي) ، الذي كان الخصم والحكم في وقت واحد ، وحكم على ماني بالكفر والإعدام ، وقد نفذ الحكم فيه سنة (٢٧٦ م) بأن صلب وسلخ حيّاً ، ثم فصلَ رأسه عن جسده ، وحشي بالتبن ، وعلق على أحد أبواب مدينة جنديسابور في إقليم الأهواز الذي احتفظ باسمه (بوابة ماني) حتى التاريخ الحديث . ونظراً للاضطهاد الذي تعرض له أتباع ماني بعد موت نبيهم حتى في احتفالهم بذكرى استشهاده في عيد (البيما)[٢] ، وخاصة من رجال الدين الزرادشتي ، فقد عاشت الدعوة سرية في إيران ، خاصة في عهد الملكين نرسي وهرمزد الثاني ، وهاجر قسم كبير من المانويين إلى أقاليم الشرق البعيدة ، ووجدوا قواسم مشتركة مع الديانة البوذية المنتشرة هناك ، وآمن بعض أمراء الأقاليم بالدعوة من

(١) تذكر المصادر والنصوص القديمة روايات كثيرة عن حادثتي إيمان أخوي سابور بدعوة ماني ، تشير إلى قوة ماني الروحية الخارقة ومعلوماته الطبية الممتازة .

(٢) تذكر دراسات النصوص المانوية أن أتباع ماني كانوا في العيد المذكور ينصبون (منبراً) يشير إلى حضور روح النبي الشهيد ، ويقال له تعال أيها النبي في عيدك حتى لا تخضع لعملية التناسخ ، وهي حلول الروح في جسد آخر بشري أو حيواني .

جديد ، ولكنها لم تكن ذات قوة سياسية . أما في الغرب فقد اقتصرت عباداتها على إقليم بابل ، وتذكر المصادر أن ملك الحيرة عمرو بن عدي حمى أتباعها حتى انتشار الإسلام في تلك المناطق .

وتعزو الروايات المانوية إلى ماني كتابة مجموعة من الكتب باللغة السريانية[١] ، أهمها بالإضافة إلى الكفلايا (Kephalaia) التي جمعت بعد موته كما أسلفنا كتاب (السابورغان) ، وكتاب (الأسرار) ، وكتاب (الأصل) ، وكتاب (الإنجيل) ، وكتاب (كنز الحياة) ، وغيرها من الكتب التي ترجمت إلى اللغات السريانية والبهلوية والصّغدية واليونانية والتركية القديمة والقبطية ، وعثر على أجزاء منها في كل من آسية الغربية وشرق أوربا وشمال إفريقية .

وتبالغ الروايات الإسلامية المتأخرة في حديثها عن الخط والنقوش والصور التي كان ماني يكتبها أو يرسمها في كتبه كرسومات توضيحية[٢] ، لدرجة أن الفردوسي في (شاهنامته) يذكر أنه لم يعرف التاريخ رساماً كما كان ماني ، ويضيف المؤرخ أبو المعالي في كتابه (بيان الأديان) نحو سنة (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) مثالاً على براعة ماني في الخط أنه كان يكتب بخط رفيع على قطعة من الحرير الأبيض إذا استلّ منها خيط واحد زالت الكتابة بكاملها . وقد أثبتت المعثورات واللّقى الأثرية التي عثر عليها في أماكن متعددة من آسية وأوربا وإفريقية ، وجود فن مانوي في الرسم ، يعتمد على التشكيلات الصينية والمغولية في الأشكال العامة واللباس بدرجة واضحة ، وهي نفسها التي اعتمدها الفنانون الفرس في العهد الإسلامي .

---

(١) تعزو الروايات القديمة إلى ماني استبداله أحرف الكتابة السريانية بالأبجدية البهلوية الساسانية والبارثية ، وذلك لأن الأبجدية البهلوية كانت لها قراءات مغلوطة ، وخاصة في استخدام الأحرف الصوتية ، وقد عمّت هذه الطريقة المانوية في الكتابة في عدد من الأقاليم الإيرانية .

(٢) يعتقد بعض المؤرخين لفترة ماني أن رسوماته كانت أول رسومات في التاريخ أعطت الشياطين صوراً منفرة ، والمؤمنين صوراً جذّابة جميلة . من أجل الاقتداء بالصالحين والابتعاد عن الأعمال الشريرة .

ثالثاً ـ المزدكية (Mazdakism)

وهي حركة دينية اجتماعية ظهرت في عهد الملك قباد الأول (٤٨٨ ـ ٥٣١ م) ، قام بها المدعو مزدك بن بامداد (Mazdak) .

اختلفت المصادر حول مسقط رأسه بين برسبوليس (أصطخر) وتبريز ، وأمكنة أخرى غير معروفة . ادّعى ـ كما يذكر الشهرستاني ـ أنه أتى لإصلاح مذهب ماني الذي اعتورته بعد موت ماني بعض التفسيرات الغامضة . وقال مزدك عقائدياً بوجود إلهين للنور والظلمة ولكنهما غير متصلين ، يعمل إله النور بحرية وحكمة ولخير الإنسان ، ويعمل إله الظلمة خبط عشواء وبعكس صالح البشر ، ويختلطان ببعضهما وينفصلان من دون ترتيب مسبق . ويزعم مزدك أن إله النور أكثر قوة ، ولكن إله الظلمة يشاكسه ، فيحرم الناس من الإيمان الصافي والعيش المطمئن . وأن إله النور يحكم العالم معتمداً على أربعة قوى هي : الشعور والعقل والحفظ والتمييز ، ويساعده سبعة من الوزراء هم بترتيب الأهمية : الزعيم (سابور) والرئيس (بيشكار) وحامل الوزر (باروز) والخبير (كاردان) والمستشار (دستور) والخادم (كودك) ، وهم الذين يدورون في فلك اثني عشر من الروحانيين هم : خوانده (الداعي) ودهنده (المعطي) وستانده (الآخذ) وبارنده (الحامل) وخورندا (الآكل) ودونده (الجاري) وخيزنده (القائم) وكشنده (القاتل) وزننده (الضارب) وكننده (العامل) وآينده (الآتي) وشونده (الذاهب) وباينده (الباقي)[١] . في حين يحكم إله الظلمة معتمداً على مجموعة قوى شريرة ووزراء ظلمانيين .

وبناء على ما سبق فإن أفضل البشر في عرف مزدك هم أولئك الذين تجتمع فيهم القوى الأربعة والمفاهيم السبعة والصلاحيات الروحانية آنفة الذكر . ويسقط عن هؤلاء أي تكليف ، ولا يتحملون أي مسؤولية يوم الحساب . في حين أن حساب بقية البشر

(١) الروحاني الأخير أضافه الشهرستاني ، ولا نجد له ذكراً في باقي المصادر الأخرى .

سيكون عسيراً ، خاصة أولئك الذين يميلون إلى الاختلاف والتباغض والاقتتال . وهو أمر يمكن حسمه بالنسبة لرجال الدين الذين روّضوا أنفسهم على كبح الشهوات والرضى بالقليل من الغذاء والكساء . ولكن عامة الناس لا يمكن لهم التّخلص من حبّ اللذات المادّية إلا في الوقت الذي يتمكّنون من إشباع هذه الغرائز بالاختيار والرضى ، وليس بالقهر وبالكبت . ومن هنا نشأت النظرية الاجتماعية المزدكية التي تقول بأن الله خلق الغرائز في بني البشر ، كما خلق لهم لذائذ الدنيا لإطفاء هذه الغرائز ، والتي يمكن تلخيصها في لذّتين أساسيتين : حبّ التملك والرغبة في المعاشرة .

وحيث إن المساواة بين البشر التي ارتضاها الله لعباده لم تتحقق ، لأن القوي منذ أقدم اجتماع إنساني حرم الضعيف من حقّه . فلا بدّ من تشريع يقيم المساواة بهدف تحقيق المشاعية المفترضة في الأموال والعقارات والرجال والنساء[1] !!!

ونظراً لتضارب معلومات المصادر العربية والبيزنطية لا يعرف على وجه الدّقة كيف حدث اللقاء الأول المفترض بين مزدك والملك الساساني قباد ، وهو اللقاء الذي أدى إلى اعتناق الملك ديانة مزدك ، وإصداره القوانين التي اعتمدت المفاهيم المزدكية في مشاعية التملك لتحقيق المساواة . وهي القوانين التي ما زالت مثار جدل لم يحسم بين المؤرخين المعاصرين بناء على تضارب معلومات المصادر . ويبرز من خلال هذا التضارب سؤالان هامان :

هل أصدر قباد قوانين تسهل عمليات الزواج أم أنه أباح النساء ؟

وهل أصدر قباد قوانين فرضت ضرائب باهظة على الأغنياء لتحسين حال الفقراء ، أو لتخفيف الفروق الاجتماعية ، أم أنه أباح الممتلكات ؟

(١) الدعوة أصلاً في المزدكية كانت لمشاعية النساء . وطالما أن النساء مشاع ، فمعنى هذا أن الرجال مشاع أيضاً ، مع فارق المبادرة التي هي في حوزة الرجل أكثر منها عند المرأة .

ومن هذين السؤالين تبرز أسئلة أكثر أهمية وهي : ما السبب الذي دفع قباد لاعتناق المزدكية ؟ فهل كانت المزدكية قوة ضاغطة على مستوى المجتمع الساساني حتى يهابها قباد ويلجأ إليها ، مخافة على عرشه ؟ أو أن قناعته الشخصية بمزدك دفعته إلى اعتناق ما ذهب إليه هذا الدّعي الاجتماعي ؟ أو أن قباد كان بحاجة إلى دعم شعبي لتحطيم قوة النبلاء المتعاظمة ، والتي كانت تهدد بقاءه في السلطة ؟ أو أن الملك كان راغباً في تحقيق إصلاحات اجتماعية تكفل لعامة الناس بعضاً من حقوقهم التي حرمهم إياها الخاصة في عهود سابقة ؟ أو غير ذلك من التساؤلات[١] .

وحيث إننا لا نجد في مصادرنا أي معلومات عن معارك اجتماعية أو جهود بذلتها حكومة الملك قباد لقمع حركة مزدك في أي فترة من فتراتها ، وبالمقابل فإننا نجد أن قباد عهد إلى عدد من المزدكيين بتهذيب وتعليم وتربية ابنه وولي عهده كاووس ، فإن لنا أن نرجح أنه لا يوجد سبب واحد فقط أدى إلى قناعة قباد بتأييد مزدك ، ولا شك أن الأسباب السابقة مجتمعة قد ساهمت في انجراف هذا الملك وراء هذه الدعوة الجديدة ، وما نتج عنها من أحداث مؤسفة لاحقة .

وتذكر الروايات الفارسية والعربية والبيزنطية المعاصرة أن انتشار دعوة مزدك أدت إلى شحن العواطف المتوترة التي كان العامة يشعرون بها سابقاً تجاه الخاصة من مغتصبي حقوقهم ، وانطلق السوقة دون رقيب إلى بيوت الأشراف ومزارعهم وأقدموا على نهب الأموال ، واغتصاب الحرائر ، وإتلاف المحاصيل ، وقطع الأشجار . وساهم ضعف الدولة وخلافات البيت المالك مع بعض أبناء الأسر الممتازة في تعاظم هذه الثورة ونتائجها المدمرة ، لدرجة أنها طالت حتى الذين شاركوا فيها من العامة . وتجلى ضعف

---

(١) تناثرت في الروايات الفارسية وكذلك العربية ، كما في ابن النديم والطبري وابن البطريق والثعالبي والفردوسي ، روايات معظمها خرافية ، وأقلها مبالغ فيه عن قيام مزدك باستدراج قباد إلى الاعتراف بحق الفقراء في أموال الأغنياء ، وأن مزدك اعتمد على اعتراف قباد في دعوة مؤيديه إلى استباحة المحظور .

الدولة في الخارج أيضاً في قيام الحارث بن عمرو زعيم قبيلة كندة بطرد المنذر الثالث ملك الحيرة واغتصاب عرشه دون أن تقوم الدولة الساسانية بأي خطوة لإنقاذ عرش حليفها .

ومع تعاظم أعمال سوقة المزدكية الذين بدا لفترة من الزمن أنه لن يكون هناك أمل في الخلاص منهم ، تفاقمت الخلافات بين الملك قباد من جهة وأتباع المزدكية والزرادشتيين من جهة أخرى . فقد كان المزدكيون يؤيدون الأمير كاووس ولي العهد لخلافة والده ، في حين كان الزرادشتيون ويؤيدهم نصارى المملكة يؤيدون الابن الأصغر كسرى[١] لولاية عرش المملكة . ودعا الملك قباد إلى مؤتمر ديني كبير نحو سنة (٥٢٨ ـ ٥٢٩ م) ، يضم كبار رجال الديانتين لمناظرة يتم بنتيجتها تسمية ولي العهد . وترأس قباد المؤتمر دون أن يعلم أن ابنه الأصغر كسرى كان قد أعدّ كميناً للقضاء على كبار المزدكيين . وفعلاً انقضّ جنود الأمير كسرى على المزدكيين ، وقتلوا عدداً كبيراً بمن فيهم مزدك نفسه . وعندما تطورت الأمور على هذا النحو انحاز الملك قباد إلى جانب ابنه كسرى ومؤيديه الزرادشتيين وأمر باستباحة دماء المزدكيين ، وبدأت المذابح تعدُّ لهم في كل الأقاليم الإيرانية ، ولم يتمكن عدد كبير منهم من النجاة فقتل معظمهم ، وصودرت أموالهم وأحرقت كتبهم الدينية ، وأهدى الملك معابدهم إلى النصارى الذين حوّلوها إلى كنائس على حدّ قول بعض المصادر البيزنطية . وقد ارتبطت حادثة القضاء على المزدكية بعودة المنذر الثالث ملك الحيرة إلى عرشه بعد قضائه على الحارث بن عمرو ، وتحولت المزدكية إلى الدعوة السرية حتى نهاية الدولة الساسانية ، وظهرت من جديد في الدولة الإسلامية العباسية على وجه التحديد .

---

(١) كان الابن الأوسط المدعو (زام) قد فَقَدَ إحدى عينيه في صغره . وكان مثل هذا العيب يحرم من تولي منصب الملكية حسب قوانين مؤسس الأسرة (أردشير الأول) .

رابعاً - النصرانية

وهي بالإضافة إلى اليهودية التي لم يكن لها شأن يذكر في الدولة الساسانية لانعزالها وتقوقعها ، تعدُّ النصرانية الديانة الوافدة الوحيدة على الهضبة الإيرانية . ولم تكن تشكل في فترة انتشارها في بلاد الشام ثم في آسية الصغرى وأوربا أي خطر على الديانة الزرادشتية على الرغم من أن عدد أتباعها كان في تزايد مستمر ، خاصة في منطقة أديسا[(١)] (Edessa) أو (الرّها) ، وكانت مدينة حدودية هامة ، إضافة إلى جهود التبشير التي قام بها الأسرى الرومان من النصارى الذين كان ملوك الدولة الساسانية يُكرهونهم على الإقامة في أمكنة نائية من ممتلكتهم ، وعلى هذا انتشرت النصرانية على نطاق ضيق في معظم أصقاع الهضبة الإيرانية .

وقد عاش نصارى الهضبة الإيرانية في كنف الدولة الساسانية في سلام واطمئنان حتى قيام الإمبراطور الروماني قسطنطين باعتناق النصرانية واعتبارها ديناً رسميّاً للدولة (٣١٢ م) . فكان هذا الحادث بداية التغير في نظرة نصارى إيران إلى حكامهم الساسانيين الوثنيين ، وكذلك في نظرة ملوك الدولة الزرادشتيين إلى نصارى دولتهم ، وأخيراً في نظرة الدولة الرومانية النصرانية إلى هذه الأقليّات من أتباع دينها ، التي تعيش في كنف دولة عدوة . وقد عبَّر الملك سابور الأول عن هذه التغيرات برسالة أرسلها إلى حكامه يطالبهم فيها بجمع الجزيات مضاعفة من نصارى دولته ، ومختتماً رسالته بوصفه هؤلاء : « إنهم يسكنون في بلادنا ، ويأكلون خيراتها ، ويشاركون أعداءنا القياصرة العواطف » ، وكانت هذه الأحداث مقدمة للاضطهادات الأولى التي تعرض لها نصارى إيران قبل الإسلام . خاصة في المدن الكبرى وأقاليم الحدود ، حيث قتل قسم كبير منهم ، وتعرض القسم الآخر للسجن والنّفي ومصادرة الأملاك .

---

(١) مدينة تقع أقصى شمال الجزيرة السورية التي يكونها نهر الفرات مع نهر الخابور ، أسس المدينة الملك سلوقس الأول أواخر القرن الرابع ق.م ، وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً ، ثم لعبت دوراً في الصراع بين الرومان والبارثيين باعتبارها أشهر مدن الحدود بين الدولتين .

ومع أن نصارى إيران قد عانوا من التمزق الذي ساد كبار رجال الكنيسة حول طبيعة المسيح البشرية أو الإلهية أو المختلطة ، إلا أنهم لحسن حظّهم أفادوا من أريحية بعض ملوك الدولة الساسانية مثل يزدجرد الأول ، الذين أباحوا في فترات حكمهم حرية العبادة ، إما عن قناعة ، وإما بموجب اتفاقات مع قياصرة الدولة البيزنطية ، لدرجة أن بعض هؤلاء الملوك الساسانيين سمحوا بعقد مجمعات دينية نصرانية في مدن إمبراطوريتهم ، وتعهّدوا بتنفيذ مقررات هذه المجامع ، كما حصل في عهد يزدجرد الأول . وقد أساء بعض رجال الدين النصارى إلى هذه الحريات التي منحت لهم ، وقاموا بتحدّي الدين الرسمي للدولة بدافع حماسهم للنصرانية ، أو كراهيتهم للدولة المضيفة ، مما أدى إلى انقلاب بعض الملوك ، خاصة يزدجرد الأول وابنه بهرام الخامس ضدّهم في تاريخ لاحق . ومع أن عدداً كبيراً من المؤرّخين المعاصرين يؤكّدون مبالغة المصادر البيزنطية النصرانية في وصف تعاسة حال نصارى إيران في تلك الفترة وذلك لأسباب دينية ، إلا أن ذلك لا يمنعنا من الافتراض بأن حالهم بصورة عامة لم تكن طيّبة ، يشهد على ذلك التأييد الكاسح الذي لقيته الدعوة الإسلامية بعد فتح العرب الهضبة الإيرانية .

الفصل الثالث
الحياة الاقتصادية والاجتماعية

أولاً ـ الحياة الاقتصادية

١ ـ الزراعة

سيطرت الدولة الساسانية على أقاليم ومناطق متعددة تراوحت بين الجبال الشاهقة والسواحل المنبسطة ، وبين الصحارى القاحلة والسهول الخصبة ، وضمّت أنهاراً وبحيرات وبحاراً كفلت لها كل المقومات الاقتصادية الزراعية للدول على المستوى الإمبراطوري . ومع أن معظم مصادرنا عن الفترة الساسانية لم تجشم نفسها عناء إعطائنا تفاصيل عن حالة الزراعة في تلك الفترة ، إلا أننا لا يمكننا تصور قيام واستمرار إمبراطورية كالساسانية دون دعم اقتصادي زراعي ملموس ، كما يمكننا من خلال معرفتنا باللقب الممنوح لكبير وزراء الدولة وهو وستريو شانسلار ، ويعني رئيس الزراع ، أو كبير المزارعين ، أن نستنتج أن الزراعة كانت عصب الحياة الاقتصادية في تلك الفترة . يضاف إلى ذلك ما نعرفه من المصادر البيزنطية أن الملوك الساسانيين كانوا يوطنون أسراهم من الرومان في مناطق لاستصلاح الأراضي البور أولاً ، ولتنظيم سقاية الأراضي المروية عن طريق استخدام الأسرى في إنشاء السدود ، وحفر الأقنية ، وبناء الجسور ، وغير ذلك من الأعمال المرتبطة بالزراعة ثانياً .

وعلى الرغم من قصور مصادرنا يمكننا أن نتبين من شذرات المعلومات المتناثرة في

بعض المصادر الكتابية أن أراضي الدولة الساسانية عرفت غرس وزراعة كافة الأشجار والمزروعات التي كانت معروفة ، وتناسب أراضي ومناخ المنطقة ، كما عرفت استنبات أنواع جديدة استحضرت من المناطق المجاورة أو البعيدة . كما أقدم الإيرانيون في تلك الفترة على تربية[1] الحيوانات الداجنة المعروفة كالجمال والأبقار ، والجواميس والغنم والماعز ، وجميع أنواع الطيور . وتشير المصادر نفسها إلى أن الأرض الإيرانية عرفت إنتاج جميع أنواع الحبوب ، خاصة القمح والشعير والشوفان ، وجميع أنواع الخضار المعروفة في ذلك الوقت ، وتذوق الإيرانيون منتجات حيواناتهم الداجنة ومشتقات الحليب وثمار التمور وإنتاج الأشجار المثمرة كالجوز والمشمش والتين والفستق والأعناب والزيتون وغير ذلك ، كما قاموا بتصدير الفائض أحياناً إلى المناطق المجاورة .

٢ ـ الصناعة

ارتبطت الصناعة الإيرانية في الفترة الساسانية أولاً بتقاليدها التي سادت في تراث تاريخ إيران القديم ، وثانياً بالزراعة التي أمدّت الصناعة بعدد كبير من موادها ، فمن بقايا أشجار النخيل وعيدان الحبوب وأشجار الغابات كانت تصنع المواد التي تستخدم في البناء ، ومن صوف الحيوانات كانت تصنع الملابس الصوفية إلى جانب أفضل أنواع السجاد في العالم ، ومن جلودها كانت تدبغ الجلود وتصنع النعال ، ومن زيتونها كان يعصر الزيت ، ومن أعنابها كان ينتج النبيذ ، ومن شعيرها كانت تصنع الجعة ، ومن كتانها كانت تنسج الملابس ، وغير ذلك من المنتجات ، إضافة إلى صناعات عرفتها إيران في تلك الفترة ، وهي صناعة الزجاج والفخار ، والخزف الملون وصناعة التعدين ، والأدوات الزراعية والبيتيّة ، والأسلحة ومكاييل الصناعة والتجارة . ويذكر

---

(١) كان رعي الأغنام والماعز من المهن ذات العلاقة بالزراعة ، إذ لم تذكر مصادرنا معلومات عن قيام بداة الهضبة الإيرانية برعي الحيوانات الداجنة والانتقال بها من منطقة لأخرى بحسب توافر المرعى ، وإن كانت المصادر نفسها تذكر شيئاً عن تقديس كلاب الحراسة التي كانت تقوم بالسهر على أمن قطعان الماشية .

أحد السيّاح الصينيين[1] في مقالة يصف فيها مظاهر الحياة العامة في بلاد المغرب (غرب الصين) التي زارها قبل الفتح الإسلامي بفترة وجيزة « أن الصناعة في إيران كانت تنتج الذهب والفضة والنحاس وأنواع كثيرة من أحجار الجواهر الثمينة . إضافة إلى الأقمشة الحريرية والصوفية والسجاد وغيرها » .

ولم يقتصر استخدام الإيرانيين أسراهم في الأعمال الزراعية أو التي لها علاقة بالزراعة فقط ، بل تعدّاها ، كما يذكر المؤرخ المسعودي في (مروج الذهب) ، إلى استخدام مهرة الأسرى في تطوير أنواع من الصناعات التي كانوا يتقنونها في بلادهم ولا مثيل لها في إيران في تلك الفترة ، وذلك عن طريق إقامة مراكز صناعية لهم . وصحيح أن عدداً كبيراً من هذه المراكز الصناعية قد اندثرت بعد فترة وجيزة من إنشائها إلا أن بقاياها ، خاصة صناعة المنسوجات المزركشة بالذهب ، استمرت في المدن والعواصم الكبيرة مثل الري ومرو وجنديسابور وغيرها ، ويشير هذا الاستمرار إلى التأثر والتأثير بين الحضارات المتجاورة أو البعيدة .

٣ ـ التجارة .

ونظراً لارتباط التجارة المحلّية بالصناعة والزراعة وأمن الطرق التجارية وقوة النقد ، فقد توافر للتجارة الإيرانية في الفترة الساسانية من مقومات القوة ما جعلها تجارة عالمية في عرف ذلك العصر . وكانت التجارة البرية تسلك عدداً من طرق القوافل القديمة إذ لا تخبرنا مصادرنا باهتمام أي ملك ساساني في إنشاء طريق ملكي جديد يختلف عن الطرق التي اعتمدها التجار وحماها الملوك في العصور السابقة . وكانت طرق القوافل الشرقية تنطلق من العاصمة المدائن (طيسفون) على الدجلة باتجاه الشمال الشرقي حتى

(١) كان هذا السائح يدعى (هينن تساينغ) قد وصف رحلته المثيرة التي قام بها أوائل القرن السابع الميلادي في كتاب حقق ونشر سنة ١٩٠٦ ، انظر :

S. Beal, bvddist Records of Western World, Translated from the Chinese Hinen Tsiang (London).

مدينة همدان عن طريق حلوان وكنغاور ، وعن هذا الطريق يتفرع طريق جنوبي يخترق خوزستان وفارس إلى مدن الخليج العربي . وطريق شمالي شرقي إلى مدينة الرّي ، ومدن بحر قزوين ، ومنه إلى الهند عن طريق خراسان ووادي كابول أو إلى الصين عبر تركستان وشمال هضبة التّبت .

أما طريق القوافل المتجهة إلى الغرب والشمال ، فقد كانت مدينة نصيبين (NISIBIS) الحدودية ، جنوب غرب منابع نهر دجلة ، مركزها الرئيسي إضافة إلى مدينة أرتاكساتا (Artaxata) في أرمينية ، ومدينة باتينا (Patina) شمال غرب سورية ، وغيرها من المدن التي كانت تعقد فيها في مواسم معينة أسواق كبيرة ترد إليها كافة البضائع الفارسية والصينية والهندية والعربية .

أما التجارة البحرية ، فتذكر الدراسات المعاصرة من واقع المصادر والروايات إضافة إلى المعثورات الأثرية في منطقة الخليج العربي أن أردشير الأول أنشأ بعد إرساء دعائم دولته مرافئ جديدة في المنطقة ، وتحالف مع عرب المنطقة لإرساء دعائم أسطول بحري يخدم تجارة المشرق ، وأن هذا الأسطول نافس الأسطولَين الروماني والحبشي في هذه البحار وتفوّق عليهما فيما بعد . وتحجم مصادرنا عن أي ذكر لأي نشاط تجاري ساساني في بحر قزوين . ويبدو أن عدم امتلاك أي دولة قوية معاصرة شواطئ على هذا البحر ، أدت إلى عدم بروز أي نشاط عسكري أو تجاري هام في ذلك الجزء من منطقة الشرق الأوسط ، ويعزز هذا الافتراض أنه لولا النشاط الروماني والحبشي في الخليج العربي والمحيط الهندي ما أقدمت الدولة الساسانية على إرساء أسطول قوي في المنطقة ، حيث تخبرنا المصادر المعاصرة أن السفن التجارية عادة كانت عماد الأساطيل الحربية في دول التاريخ القديم .

وكانت الخيوط الحريرية على رأس قائمة المواد التي كان الإيرانيون يستوردونها من الصين ، ويصدرونها إلى الغرب بعد نسجها . ويبدو أن هذا الاحتكار لم يتفق مع

مصالح الدولة البيزنطية ، فعملت على تشجيع غرس أشجار التوت في أراضيها واكتفت بإنتاجها منه خلال مدة قصيرة . على أن أبرز المصنوعات والمواد التي كان الصينيون يستوردونها من الدولة الساسانية ، فقد كانت قطع السجاد ، إضافة إلى المنسوجات المزركشة بالذهب والمصوغات والجلود ومواد الزينة ، خاصة الكحل الإيراني . ومن خارج الهضبة الإيرانية كان الإيرانيون يصدرون بالوساطة أحجاراً كريمة من سورية ، ومرجاناً ولؤلؤاً من البحر الأحمر والخليج العربي ، والمواد المخدرة من آسية الوسطى ، والأقمشة المنسوجة من مصر وسورية .

ثانياً ـ الحياة الاجتماعية

١ ـ التقسيمات الاجتماعية

ارتكز المجتمع الإيراني منذ بدايات تشكيله على مستوى الأمة على قاعدتين رئيستين : الأولى هي النّسب ، والثانية هي المُلْكية ، وهي قاعدة إقطاعية ربطت بين المَلَكيّة والمُلْكيّة ، وفرّقت بين الطبقات الاجتماعية بفروق محكمة ، كفلها القانون وفرضت عاداتها الأعراف والتقاليد التي نسبت بدورها إلى التاريخ الأسطوري للأمة . وظهر التمييز شكلاً بين الطبقات دائماً في نوعية الركوب واللباس ، والمسكن وامتلاك الأرض الزراعية ، وعدد النساء والخدم . وهو أمر لم ينسحب فقط على الطبقات ، بل أيضاً على أفراد الطبقة الواحدة ، حيث تميّز رجال الحرب مثلاً بتقدمهم على بقية العظماء في الحفلات وطريقة اللباس ، وحجم الثروة ، وعدد الحريم والخدم .

ويبدو أن القواعد التي تثبت مكانة الفرد في مجموعته كانت شديدة لدرجة كبيرة بحيث إنها لم تكن تسمح لأحد أن يطمح في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها له مولده ومنبته ، إلا في حالات استثنائية جداً ، وهو أمر ظهر في كثير من المواعظ التي تحدث بها بعض الملوك إلى عظماء دولتهم في مناسبات مختلفة . وكذلك في حوادث امتناع الملوك والأسر النبيلة عن مصاهرة أمراء أو أسر أقل منهم شأناً ولو بقليل . ويبدو من أجل الحفاظ على هذه الهيكلية من الاندثار ، كانت الدولة تسجل الأشراف في سجلات ، وكانت تهتم بطرائق معيشتهم وتمنع عامة الناس من شراء ممتلكاتهم ، إلا إذا تصرّف الأشراف بما يضيرهم من الناحية الاجتماعية كالتّخلّق بأخلاق السوقة ، ومصاهرة العامة ، والابتعاد عن التّعفّف .

واعتماداً على هذه التقاليد والأحكام كانت كل طبقة ملزمة بأن تعمل في الإطار

الذي خلقها الله له ، وجاء في عدد من المصادر المعاصرة أن واجب كل صاحب مهنة أو حرفة ألا يتعلم إلا حرفته ، وألا يتدخل في غيرها ، وأن يصبّ جهوده في سبيل تحسين أدائه . وقد جاء في (تاريخ أبي الفداء) تأكيد لهذا الإلزام من خلال عدم إقدام الملوك على تكليف أحد من غير الأشراف أو الكتّاب بأي عمل من أعمال السّجلات الملكية . ويحدثنا الفردوسي في (الشاهنامة) عن كسرى الأول بأنه احتاج في إحدى حروبه ضدّ البيزنطيين إلى تمويل عجزت الخزانة الملكية عن تأمينه ، وعلم إسكافي عجوز بحاجة الملك ، فأرسل من يعرض عليه المبلغ ، وكانت مهنة الإسكافي من المهن الوضيعة في الترتيب الاجتماعي الساساني ، ومع ذلك فقد قَبِل كسرى مبلغ القرض ، وأمر بِرَدِّ المبلغ مع فائدة كبرى حين السداد ، لكن الإسكافي طلب من الملك أن يدخل ابنه الذي كان يتقن الكتابة في طبقة الكتاب . وعندما بلغ كسرى طلب الإسكافي أمر بردّ المبلغ وقال : لن أستلم قرضاً بهذا الثمن الباهظ . ولما سأله بعض أعوانه عن السبب قال : « عندما يصبح ولدي ملكاً لن يرى أمور دولته إلا من خلال عيني كاتبه ، ولن يسمع إلا بأذنيه ، ولن يبقى لأهل العلم من الأشراف إلا الأسف والحسرة ، لأنه إذا علت درجته استهان بذوي الفطنة واستكبر لهم في الثواب ردّ الجواب » .

وعلى الرغم من كل ذلك ، وبحسب الرّوايات المعاصرة ، لم يكن الانتقال من طبقة أدنى إلى طبقة أعلى مستحيلاً ، فقد كان لكل قانون استثناء . إذ يذكر عدد من الروايات المعاصرة أنه عندما يتمكن فرد من العامة من إظهار مواهب خاصة أو تقديم خدمات عظيمة للدولة أو للملك ، كان بالإمكان بعد مراقبته من قِبَل رجال الدين الموابدة والهرابدة إلحاقه بطبقة أعلى بحسب تميُّزه ، فإذا كان تقيّاً أصبح في طبقة رجال الدين ، وإذا كان ذكيّاً ألحق بطبقة الكتّاب ، وإذا كان شجاعاً ألحق بطبقة رجال الجيش . ولكن هذه الحالات تبقى نادرة جداً في التاريخ الساساني .

وكانت طبقة العامة تقسم إلى قسمين : فلاحين ومدنيين ، وكان المدنيون فيما يبدو

أفضل حالاً من الفلاحين ، فكانوا مثلهم يدفعون الضرائب إلا أنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية ، وكانوا يمتلكون بعض المال من جراء اشتغالهم بالحرف والتجارة ، أما الفلاحون فقد كانوا أشبه ما يكون برقيق الأرض يرتبطون بها وملزمين بأداء السُّخرة لملاّك الأرض وتقديم أرواحهم للحرب وقت الحاجة تحت قيادة زعيمهم الإقطاعي .

٢ ـ الزواج والبنوة

قامت العائلة الساسانية على مبدأ تعدد الزوجات الذي يترجم حالة الزوج الاقتصادية في كل الطبقات ، حيث كان الفقراء يتخذون زوجاً واحدة والميسورون أكثر من زوج بحسب يسارهم . وكانت الزوج الرئيسة تميز عن باقي النساء بلقب الزوج الممتازة ، إذ كانت الزوج التي تليها في الأهمية في معظم الحالات من الرقيق أو السبايا وتلقب بالزوج الخادمة . وكان يحق للرجل أن تكون له أكثر من زوج ممتازة شريطة أن تسكن كل واحدة في بيت خاص . وكان للمرأة الممتازة طيلة حياتها والابن حتى بلوغه والبنت حتى زواجها الحق في النفقة على رجل البيت ، في حين لا يكون للزوج الخادمة هذا الحق . ومع أن بعض المصادر المعاصرة تذكر ستة أنواع من الزواج أو من الزوجات ، فإن القانون الساساني لم يذكر غير (الزوج الممتازة) و (الزوج الخادمة) .

ومن شدة تعلّق النظام الاجتماعي الساساني بنقاء دم الأسرة ، فقد أجاز الزواج من المحارم ، وهي فيما يبدو عادة قديمة مارستها معظم المجتمعات القديمة تشبُّهاً بالآلهة الأسطورية ، وبالغ بعض الأشراف في هذا لدرجة إقدام بعضهم على الزواج بكل أخواته . كما تذكر قصة مغتصب العرش الساساني بهرام جوبين أنه تزوج من أخته . كما تزوج شريف آخر من أخته قبل أن يصبح نصرانياً (تلك العادة النجسة التي يقرّها هؤلاء الضّالون) على حدّ قول مصدر نصراني معاصر انتقد وضع هذا الزرادشتي الذي

تحول للنصرانية ، وهي النقطة القاتلة التي انتقدها النصارى بشدة خلال مناظراتهم مع الزرادشتيين الذين كانوا يدافعون عن هذا الزواج باعتباره عملاً مقدّساً .

وكانت ولادة الذكور تعدّ مكرمة من الله ، على الوالد أن يعلن شكره وتقديم الأضاحي ويعقد الولائم في مناسبتها أكثر مما يفعل في حالة ولادة الإناث . وكانت التسمية تعتبر هامة جداً وينصح بالأسماء ذات الطابع الديني المشتقة من اسم أهورامزدا أو المضافة له أو الأسماء ذات العلاقة بالنار (آذر) ، أو الأسماء الملكية ، أو الأسماء ذات الطابع الأسطوري البطولي . ومن أجل حماية المولود من الشياطين كانوا يحرمون أن تقترب منه امرأة حائض ، ويصرّون على أن توقد مواقد النار في البيت مدة ثلاث ليالٍ متوالية لطرد الأرواح الشريرة ، وعندما كانوا يحلقون له شعر رأسه كانوا يتبعون طقوساً دينية صارمة . وكان الطفل يتبع أباه في أول صباه لتعليمه مهنته ، في حين تقوم الأم بالإشراف على تعليم ابنتها تعليماً دينياً وبيتياً ، إلى أن يحين وقت زواجها ولا يحق لها اختيار زوجها ، كما لا يحق لأبيها إجبارها على قبول زوج اختاره لها[1] ، وبذلك كان رضاها عن المتقدم للزواج منها أساسياً .

وتتم الخطوبة غالباً في زمن الطفولة ، ويتأخر الزواج إلى سن الخامسة عشرة للبنت ، أما الشاب فلا تحدد له سنّ للزواج . وتقوم الخاطبة بالإجراءات البدائية للزواج ، وتحدد المهر الذي يدفع إلى والد العروس ، ويستردّه العريس إن لم تكن العروس تساوي المبلغ المدفوع إلى الأب ، وهو تعبير كان يقصد به على الغالب عقم الزوجة . وبعد الزواج تنتقل رعاية العروس إلى زوجها والإشراف على ممتلكاتها التي ترثها من أبويها .

وعلى الرغم من كل القيود الاجتماعية التي فرضت على الإناث في المجتمع الساساني ، إلا أن المرأة في هذا المجتمع تمتعت بشخصية قانونية مستقلة . فقد كان بإمكان الزوج

(١) كانت المرأة التي تصل إلى مرحلة العنوسة تحتفظ بحقها في نفقة والدها وفي إرثها منه حتى في حالة اتّصالها برجل بشكل غير شرعي ، كما يجبر الجد للأم على الإنفاق على أولادها غير الشرعيين .

وبمقتضى عقد قانوني أن يجعل زوجه الممتازة ، سواء كانت واحدة أو اثنتين ، شريكة له في ماله . وتعدُّ العقود التي تبرمها الزوج مع الآخرين عقوداً قانونية تلتزم بها الزوج وحدها دون زوجها ، لكنها تسدّد ديونها بالتّضامن مع زوجها . وكان يحق للزوج فسخ هذه الشراكة دون أن يحقّ للزوجة ذلك . وباعتباره صاحب الولاية على عائلته كان ربّ البيت يتصرف في أموال كل من يلوذ به من زوجات وأبناء ورقيق ، ويردّ لزوجته كل أموالها في حال طلاقها ، لكنه لا يرد أموال الرقيق بعد إعتاقه . ولعل أغرب ما في قوانين الزواج الساسانية أنه كان باستطاعة الرجل أن يتنازل عن إحدى أزواجه لرجل آخر كي تساعده على تحمل تكاليف الحياة ويردّها له بعد انتهاء المدة . كما كان أهل الرجل المتوفى دون ذرية ملزمين بتزويج امرأته أو ابنته أو قريبته حتى لا ينقطع ذكر المتوفى ونسله إلى آخر الدهر !!!

وقد نظم القانون الساساني موضوع الوصاية والتّبني ، فإذا توفي رجل دون أن يكون له ولد بالغ تتسلم الزوج الممتازة الوصاية على أبنائها ، في حين لم تكن الزوج الخادمة تتمتع بهذا الحق ، بل كانت توضع تحت الوصاية كأطفال زوجها . وفي حال عدم وجود زوج ممتازة تسند وظيفة الوصي إلى ابنته العزباء أو إلى أخ الميت ، ثم أخته ، ثم ابنة أخيه ، ثم ابن أخته ، ثم أقرب الأقارب فأبعدهم بالترتيب . واشترط القانون في الوصي الذكر البلوغ والزرادشتية والزواج المثمر (أن يكون له أولاد أو يتوقع ولادة ولد قريباً) ، وأن يكون عفيفاً ، كما اشترط في الوصي الأنثى عدم الزواج ، وألا تكون بغيّاً ، أو وصية على عائلة أخرى . في حين يمكن للرجل أن يكون وصيّاً على عدد من العوائل . وكانت الزوج الممتازة تتساوى مع الأبناء في حصة الإرث في حين تأخذ البنت المتزوجة نصف حصة . وحيث إنه لم يكن للزوجات الخادمات وأبنائها أي حقوق في الإرث فقد كان بعض الرجال يهبون أو يوصون لهم ببعض المال أثناء حياتهم . كما كان بإمكان الأبناء طلب حجر تصرف الآباء للتصرف بممتلكاتهم قبل الوفاة بداعي الإضرار بمصالحهم أو العته المرتبط بمرض الموت .

ثالثاً ـ النظام القضائي

١ ـ رجال القضاء

تشير الدلائل إلى أن ملوك الدولة الساسانية في معظمهم رعوا واهتمّوا بشؤون دولتهم القضائية اهتماماً تردّد صداه في الاحترام الهائل الذي كان عامة الناس ينظرون فيه إلى هيبة المحكمة وشخصية القاضي . ونظراً للعلاقة الجدلية بين الأخلاق والدين ومواد القانون فقد استلزم أن تكون السلطة القضائية في مجملها بأيدي رجال الدين ، وكان الرئيس الأعلى للقضاة الذي كان يتبع إداريّاً إلى موبدان موبد ، ويحمل لقب قاضي الدولة (شهردادور) أو (دادوردادوران) يقوم بالإشراف على سير العملية القضائية في الدولة ، وأحياناً المشاركة في تعيين القضاة . وكان يحكم تعيين هؤلاء في المدن والنواحي والقرى خبراتهم في القضاء وعدد السنوات التي قضاها القاضي في دراسة القانون على أيدي القضاة الأقدم منه في السلك ، وهو الأمر الذي ينطبق أيضاً على القضاء العسكري في القطعات الصغيرة والكبيرة ، أو القريبة أو البعيدة عن مركز العاصمة .

ونظراً إلى أن الملك كان أعلى سلطة قضائية في الدولة فقد كان يحقٌ لأي متقاضٍ أن يستأنف دعواه إذا خسرها في المرة الأولى أمام الملك الذي كان الوصول إليه صعباً في معظم أيام السنة باستثناء عيد النيروز ، وعيد المهرجان ، حيث كان الملك يتساوى نظريّاً مع عامة الناس فيخلع تاجه ويتلقى اتّهامات من بعض الناس الذين تعرّضوا إلى جور وعسف الحكام ، وينصف المظلوم ، في مقابل أن يتعرض الذي يثبت قدحه أو تجنيه على الحكام إلى عقوبة رادعة ، وكان للتقاضي أمام القضاة أو أمام الملك قواعد تلزم الطرفين باختصار الكلام وتحديد مدة لإحضار الشهود ، وكذلك قواعد أخرى للتثبت من صحة القسم الذي يقسمه أحد الطرفين المتخاصمين .

٢ ـ الجرائم والعقوبات

وبناء على ما ذكر في كتاب الأوستا من القوانين وملحقاتها ، يميز القانون بين ثلاثة أنواع من الجرائم :

أولها جرائم الرِّدة وهي في حق الآلهة أو الدين .

وثانيها جرائم الخيانة وهي في حقّ الملك والوطن وعقوبة كل منها الإعدام بقطع الرأس غالباً بالسيف أو الصَّلب في حال ثبوتها .

وثالثها جرائم الأفراد كالسرقة وقطع الطرق وهتك الأعراض والإيذاء الجسدي أو الإتلاف المادي وغيرها ، وتتراوح عقوبة هذه الجرائم بين السجن لمدد متفاوتة ، مع الأشغال الشاقة أو من دونها أو مصادرة الأموال أو تعريض المجرم لحيوانات مؤذية كالكلاب الجائعة والفئران والفيلة ، أو إتلاف الأعضاء كسمل العيون ، أو جدع الأنوف ، أو صمل الآذان ، أو قطع الأيدي أو غيرها من العقوبات .

وقد حرصت المصادر البيزنطية على ذكر ، وأحياناً بمبالغة كبيرة ، الحديث عن أنواع العقوبات التي كان يتعرض لها نصارى الدولة الساسانية ، الذين أطلقت عليهم لقب الشهداء ، ومنها سلخ جلد المجرم حيّاً ، أو الرّجم بالحجارة حتى الموت ، أو وضعه تحت أقدام الفيلة ، وأحياناً الإبقاء على المتهمين لاستخدامهم في تجارب طبية . والتعليق من يد واحدة أو رجل واحدة ، وكسر الأعضاء وصبّ المعادن في العيون والآذان ، وثقب العيون بواسطة الإبر المحماة ، وغيرها من العقوبات المغالية في قسوتها ، والتي تذكر بعض المراجع أنها مقتبسة من قانون العقوبات الهندي المعاصر . على أن أشد أنواع العقوبات فظاعة كانت عقوبة (تسع ميتات) والتي بمقتضاها تقطع أصابع يدي المعاقب ، ثم أصابع قدميه ، ثم اليدين حتى الرّسغين ، ثم القدمين حتى الكعبين ، ثم الذراعين ، ثم الساقين ، ثم الأذنين ، فالأنف ، فالرقبة . وتذكر المصادر البيزنطية أنه

كان يكلف بعض المسجونين من النصارى بتنفيذ هذه العمليات في حق إخوانهم في الدين مقابل حرياتهم أو رد أموالهم .

ويميل عدد كبير من المؤرخين المعاصرين إلى القول بأن من التَّجنِّي بمكان الافتراض أن هذه العقوبات كانت سائدة في العقوبات اليومية التي تصدرها المحاكم . ويرجحون أن هذه العقوبات كانت خاصة بفترات الاضطهاد الديني التي كانت متبادلة على الغالب بين الدولتين البيزنطية النصرانية والساسانية الزرادشتية . إضافة إلى أن بعض الحوادث تشير إلى أن عدداً كبيراً من الأحكام الجائرة التي كان يصدرها حتى الملك شخصياً لم تكن تنفذ بحذافيرها في كل مرة . إضافة إلى أنه في حوادث الاضطهاد الديني لم تكن للمحاكم العادية أي أدوار ، فقد كان الملوك في تلك الحالات الاستثنائية يطلقون أيدي رجال الدين الزرادشتي الذين كانوا يقومون بمهمة الاتِّهام والتحقيق والحكم . وحين كان بعض كبار رجال الحكم يعترضون على الأحكام الصادرة ، أو طرق المحاكمة كانوا في أحيان كثيرة يفقدون وظائفهم . ولعل العقوبة الأشد كانت تقع على أولئك الذين ارتدّوا عن الزرادشتية ، واعتنقوا النصرانية ، والذين اكتنفت حوادث الانتقام منهم إظهار كرامات ومعجزات يصعب على العاقل المحايد تصديقها حسب ما تذكرها المصادر البيزنطية .

رابعاً ـ النظام التعليمي

لا يعرف الكثير عن التعليم في الدولة الساسانية قبل كسرى أنوشروان ، خاصة مراحل التعليم الأولى ، ومع ذلك لا يمكننا الافتراض بأن مواطني هذه الدولة العظمى في زمانها لم يتلقوا تعليماً عامّاً في المراحل الأولى من حياتهم . وإن كان من الثابت أن معظم الناس كانوا أميّين ، ونخصُّ فلاحي المناطق النائية ، وذلك لعدم حاجتهم الماسّة إلى التّعلّم ، في حين كان التجار نظراً لحاجتهم بالمقابل يتقنون القراءة والكتابة في الوقت الذي كان الخاصة من طبقة رجال الدين ورجال الحرب والكتّاب يتلقون في غالبيتهم تعليماً أوليّاً عامّاً ، ومن ثم تعليماً عالياً خاصّاً طابعه التعليم الديني الظاهر ، حيث يركز على تلاوة (الأوستا) وحفظ شروحها ، والتّفقه في معانيها . إضافة إلى تعلُّم أصول المحاسبات والمخاطبات للكتاب ، وتعلُّم التاريخ والشعر الحماسي لرجال الحرب . وكان أبناء الأسر النبيلة يتلقون تعليمهم العام مع أبناء الملك وأبناء الحاشية في القصر الملكي ، فيتعلمون القراءة والكتابة ، والحساب والتاريخ ، والشطرنج والموسيقى والفلك ، إضافة إلى تدريبات رياضية أهمها رمي الرمح والسهام ، والقرص والفروسية ، وصيد الحيوانات . وكان معظمهم يتابعون بعد بلوغهم سنّ الرشد تدريباتهم العسكرية أو تعليمهم الديني أو التّعلم المتخصّص . ولا يعرف شيء عن تعليم البنات باستثناء ما يفترض اعتماداً على ما ورد في عدد من النصوص أنهنَّ يتعلَّمن أصول التدبير المنزلي ، إضافة إلى ما يمكن استنتاجه من بعض الحوادث الفردية التي تشير إلى أن بعض بنات الأشراف كن يتابعن تعليمهنّ العالي في معظم العلوم[1] .

---

(١) تذكر الروايات حادثة عن قاض استوقفته مجموعة من السيدات ، وسألنه مجموعة من الأسئلة ، وحين حار في الرّد عن هذه الأسئلة أرشدنه إلى الجواب بالعودة إلى الكتب القانونية المتخصّصة .

١ ـ العلوم الطبيّة

كان الفرس الساسانيون يثقون بعلوم الإغريق والرومان ، خاصة في الطب ، حيث تؤكد مصادرنا أن معظم أطباء الملوك كانوا إغريقاً أو روماناً ، ومع ذلك تتضمن (الأوستا) وشروحها وأشهرها (نسك هَسبارم) معلومات طبية جيدة تستهلها بحقيقة أن أهورامزدا ردّ على أهريمان الذي خلق الأمراض لقهر الإنسان بأن أوجد لكل مرض نباتاً يشفي منه . كما يتضمن (النّسك) تفاصيل عن صفات الطبيب الجيد ، ومراحل تعليه ، وواجباته تجاه مرضاه ومجتمعه ، إضافة إلى أجوره[1] التي تختلف حسب حالة المريض الاجتماعية ونوعية المرض . ونجد في (النّسك) توجيهاً للمرضى الإيرانيين على ضرورة اللجوء إلى الطبيب الوطني قبل الاستعانة بالأجنبي ، وكذلك تفاصيل أخرى عن أنواع الأمراض وأشكال الأوبئة ، وكذلك أمراض الحيوانات الأليفة وعلاجها .

ولعل أبرز ما في هذا (النسك) من معلومات طبية ، هو تقديمه معلومات عن الطب النفسي ، وتفريقه بين صحة الجسد وصحة الروح ، وتأكيده على أهمية طبيب الروح ، علماً بأنه لا يستخدم أدوية بل يستخدم طرقاً معنوية للعلاج . وفي هذا المقام تستعرض كتب التراث العلمية الساسانية ثلاثة طرق للعلاج :

أولها الأعشاب وهي الأدوية .
وثانيها السكين وهي الجراحة .
وثالثها الكلام المقدس وهي العلاج النفسي . وكان يضاف له حرق البخور لطرد الأرواح الخبيثة . ويبدو أن الأطباء النفسيين كانوا يقتربون بحسب علومهم من رجال

(١) تذكر الكتب الدينية أن أجر الطبيب يتراوح بحسب الحالة الاجتماعية للمريض ، خاصةً الأغنياء ، أما الفقراء فيتراوح الأجر بين تقديم أهل المريض الطعام ، أو تأمين الركوب ، أو المسكن ، أو كلها معاً حسب وضع المريض المادّي . وتذكر أن أفضل الأطباء هم من يمارسون عملهم دونما مقابل تدفعهم الشفقة ، وتعاليم الدين الزرادشتي ، يليه الطبيب الذي يأخذ أجراً معقولاً ، وأسوأ الأطباء هو من يغالي في أجره .

الدين أكثر من رجال العلم ، حيث كان هؤلاء يشبهون الإثم بالمرض ، ويوازون بينهما ويعتقدون أن الرذائل كالجهل والغرور ، والخداع والشهوة ، والغريزة ما هي إلا أسباب لا مرئية لأمراض الزكام والإسهال والجفاف والحمى وبقية الآلام . وكانت تفسيرات الكتب الطبية الزرادشتية للمرض طريفة لدرجة ملفتة ، فكل الأمراض والرذائل تنتسب معاً إلى روح أهريمان التي تأتي منها علتان هامتان هما الرطوبة والجفاف ، واللتان يجب حماية جسم الإنسان منهما ، وتتوقف حالة دم الإنسان على قوة حيويته التي تسارع في الشفاء أو لا تفعل . وعلى الغذاء أن يحمل أكبر كمية من الرطوبة (الماء) لكي تدفع عن الجسد أذية الجفاف ، وكذلك أن يحمل بعض الحرارة (النار) لكي يدفع أذية البرد . ويحسن بالإنسان أن يتناول طعامه باعتدال على أساس أن كثرة الطعام تفسد على الجسم رشاقته والعقل حكمته ، كما تعطل قلة الطعام حركة الجسم والعقل . ويبدو أن نجاح العلوم الطبية المعاصرة التي أثبتت وجودها في المجتمع الساساني دفعت في اتجاه إنشاء مدارس لتخريج الأطباء ، وقد سهل تحقيق الهدف لجوء عدد كبير من الأطباء البيزنطيين من أتباع المذهب النّسطوري[1] ، الذين شعروا باضطهاد أصحاب المذهب اليعقوبي لهم ، وكان مذهب أباطرة بيزنطية . ويبدو أن هؤلاء نجحوا في تأسيس أفضل مدارس الطّب في مدينة جنديسابور ، التي استمرت مزدهرة حتى بدايات العصور الإسلامية . وقد برز في المأثورات الساسانية الطبيب برزويه من عهد كسرى الأول ، الذي قام ابن المقفع بوضع ملخص حياته في مقدمة ترجمته المشهورة لكتاب (كليلة ودمنة) .

---

(١) اختلف رجال الدين النصارى مع بداية القرن الخامس في قضية طبيعة المسيح ، فذهب أتباع المذهب (النّسطوري) إلى أن للمسيح طبيعتين ، واحدة بشرية (ناسوتية) وثانية إلهية (لاهوتية) ، في حين زعم أتباع المذهب (اليعقوبي) إلى أن للمسيح طبيعة واحدة (مونوفيزيت) اختلطت فيها طبيعته البشرية مع الإلهية . واحتدم الجدل بين أتباع المدرستين إلى خلاف ثم عداء أدى إلى ضعف النصرانية وبالتالي الدولة البيزنطية .

٢ ـ العلوم الأخرى

وهي العلوم التي ازدهرت استمراراً للعلوم التي عرفتها دول الهضبة الإيرانية الأقدم من الدولة الساسانية ، والتي نتوقعها تناسب حجم هذه الدول ، ومنها إلى الدولة الساسانية في مستهلّ أيامها . والملفت أن معظم معرفتنا بهذه العلوم يعود إلى عهد كسرى الأول الذي تذكر المصادر المعاصرة أنه كان زرادشتياً إلا أنه تميز بين أبناء عصره بأنه كان واسع الأفق حرّ التفكير ، وكانت طبيعته الفكرية تتقبل بحث الآراء المختلفة في المسائل الدينية الطبيعية ، لدرجة أنه على الرغم من تعصب أبناء جيله ، فإنه لم يكن يتردد في استخدام أتباع أي ديانة ، خاصة النصارى ، في وظائف ذات نفع عام . وتضيف المصادر أن كسرى كان مثقفاً لدرجة أنه كان يقرأ كتباً بالسريانية وربما بالسنسكريتية ، وأنه كان معجباً جداً بفلسفة أفلاطون وأرسطو ، وأنه كلّف أحد المطارنة[1] ، ويدعى بولس ، بترجمة بعض كتب المنطق التي كتبها أرسطو ، والتي تحدث فيها عن الآراء التاريخية بوصف الآلهة والعالم ، ونظريات الخلق في الديانات المختلفة . هذه الترجمة التي ورد فيها أن بعض الأمم تؤمن بأن خالق العالم واحد ، وأخرى تعتقد بأنه أكثر من واحد ، وثالث يعتقد بأن الإله الكبير له صفات بشرية متضادة ، وبعض رابع يقول بعكس ذلك ، وبعض خامس يقول بأن هذا الإله قادر على كل شيء ، وبعض سادس يقول أن قدرته لا تشمل كل شيء . وغير ذلك من التفصيل السردي الديني التاريخي الذي ينهيه المطران بولس بترجيح الفلسفة على الدين . ويذكر المحامي أجاثياس (Agathias Scholasticos) ـ ويعد ما كتبه عن عصر كسرى أفضل ما كتبه مؤرخ بيزنطي من الناحية التعليمية ـ أن فيلسوفاً إغريقيّاً يدعى أورانيوس (Uranios) كان يعلم كسرى الفلسفة اليونانية ، وأن أحد أشهر

---

(١) المطران ، مرتبة دينية عالية في النصرانية تعدُّ صاحبها للإشراف على كنيسة في إحدى المدن الهامة في الدولة ، ويرأس مجموعة من رجال الكهنوت الأصغر رتبة ، ويتبع بدوره إلى المرتبة الأعلى وهي (البطريرك) .

الموضوعات التي كان يناقشها معه هو موضوع هل أن العالم مستمر ولا متناه ، وهل له مسبب واحد ؟ وتؤكد هذه الصفات عن كسرى حادثة قيامه بالترحيب بأساتذة مدرسة أثينا للفلسفة(١) بعد إغلاقها بأمر من السلطات البيزنطية النصرانية(٢) . وعلى الرغم من أن هؤلاء الفلاسفة وهم سيمبليكيوس (Simplicios) من صقلية ، ويولاميوس (Eulamios) من فروجية في آسية الصغرى ، وبرسكيانوس (Priscianos) من لودية في آسية الصغرى ، وهرمياس (Hermias) ، وديوجين (Diogens) ودامسكيوس (Damascios) من سورية الداخلية والساحل ، قد صدموا بعد وصولهم إلى إيران بعادات المجتمع الإيراني ، وغادروا بلاط كسرى ، فإن ذلك لم يمنع هذا الملك من التدخل لصالحهم في إحدى مفاوضاته مع إمبراطور بيزنطة لضمان حريتهم عند عودتهم إلى أوطانهم . ويبدو تأثير ملك مستنير على العرش أكثر ما يكون في حرصه على نقل معارف الأمم المجاورة إلى بلاده ، ومع أننا لا نجزم بعدد هذه المعارف لضياع أصول الحكم على ذلك إلا أن ما بقي منها يعدّ طيباً ، ففي عهد كسرى ـ على الغالب ـ ترجم إلى البهلوية الساسانية كتاب (ماذيكان شطرنج) = (قصة الشطرنج) ، ونقلت هذه اللعبة الرائعة إلى الهضبة الإيرانية ، وفي عهده أيضاً نقلت مجموعة من الروايات البوذية إلى البهلوية أيضاً . على أن أشهر هذه الترجمات عن الهندية السنسكريتية كان كتاب (بانكاتانترا) الذي حملت ترجمته البهلوية عنوان (كليلة ودمنة) ، وهو الذي تعزى ترجمته إلى الطبيب الأشهر (برزويه) ، ولعل القصص الخيالية المتضاربة التي دارت حول نقل الكتاب إلى البهلوية ، ومن ثم إلى العربية فيما بعد تبين مدى انتشار هذا الكتاب في الهضبة الإيرانية ككتاب تعليمي . ويرجح معظم الدارسين أن الإقبال الذي لقيه كتاب (كليلة ودمنة) يرجع إلى سببين : أولهما أنه مثّل روح الحياة الفكرية الهندية أصدق تمثيل ، وثانيهما الدّقة التي بذلها المؤلف في عرض الاتجاه الأخلاقي في

(١) تعدُّ مدرسة أثينا للفلسفة أشهر مدارس الفلسفة في التاريخ القديم قاطبة ، وينسب تأسيسها إلى أفلاطون وأرسطو والمدارس الرواقية والأبيقورية والكلبية والشكية وغيرها .

(٢) اعتقد رجال الدين النصارى في بيزنطة بأن المدارس الفلسفية كانت تناهض بقوة انتشار النصرانية .

مضمون الكتاب ، وإلى الصلة الوشيجة بين هذه الفكرة الأخلاقية وما احتوته كتب النصائح الإيرانية في عهد أنوشروان وما بعده .

خامساً ـ العاصمة طيسفون (CTESEPHON) في عهد أنوشروان

بلغت طيسفون[1] أو المدائن في عهد أنوشروان أقصى اتّساع لها . ويعتقد أن التسمية العربية التي استمرت ، وهي المدائن ، كانت ترجمة للاسم البهلوي السابق وهو (شهرستان) ، والذي ارتكز بدوره على رواية أن المدينة كانت تتألف في بداية تاريخها من سبع مدن ضمّها سور واحد في فترة من فترات تاريخها ، وكان نهر دجلة يقسم المدينة إلى قسمين ينتقل منها وإليها السكان عبر جسر من السفن ، الذي بقي على هذا الحال حتى أمر سابور الأول ببناء جسر آخر ، يخصّص أحدهما للقادمين ، والآخر للمغادرين . وتشير آثار المدينة الباقية الآن إلى أن المدينة كانت محصنة بسور نصف دائري محمي بأبراج . وكشفت حفائر أول بعثة ألمانية إلى موقع المدينة سنة (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ م) عن خرائب القصر المشهور باسم (طاق كسرى) وكنيسة نصرانية ومزار إسلامي ، يعتقد بأنها أقيا فوق أو بالقرب مما كان يعرف بحدائق القصر الملكي في العصر الساساني ، كما كشفت الحفائر بقايا سور المدينة القديمة المبنى من اللبن المشوي ، وعدّت المدينة إحدى مراكز الديانة النصرانية في القرون الميلادية الأولى ، حيث بنيت على أرضها كاتدرائية ، هدمت أثناء حكم سابور الثاني ، ثم أعيد بناؤها بعد وفاته ، وأصلحت عدداً من المرات . وقد أبانت حفريات تالية جرت (١٩٣١ ـ ١٩٣٢ م) عن أساسات منازل من الفترة الساسانية ، كانت جدرانها تزين على ما يبدو من بقاياها بأشكال نباتية وحيوانية ، تضيف إلى التماثيل النصفية البشرية أو تماثيل الراقصات

---

(١) طيسفون هو الاسم اليوناني للمدينة قبل الساسانيين ، تقع على نهر الدجلة ، وتبعد نحو مئة كم عن بابل شمالاً . صارت مستعمرة عسكرية زمن البارثيين في مواجهة مدينة سلوقية على نهر الدجلة السلوقية ، التي بعد دمارها سنة (١٦٥ م) ، أصبحت طيسفون المدينة الرئيسية في المنطقة ، ثم بعد ذلك عاصمة الساسانيين .

أرضيات وخلفيات جميلة إلى بيوت العصر ، كما عثر على أنقاض قصور ملكية وأميرية من عهد سابور الأول وعدد من المقابر التي استعملت على ما يبدو بعض حجارتها في بناء عدد من قصور بغداد في العصر العباسي الأول .

سادساً ـ فنون وآثار الدولة الساسانية

تعرضت أوابد وآثار الدولة الساسانية إلى كثير من عوادي الزمن الطبيعية وعبث العابثين ، ففقد العالم بذلك قسماً كبيراً من الكنوز الفنية والعمرانية لتلك الدولة التي ملكت السيطرة على نصف العالم المأهول فترة من الزمن ، واقتسمت في فترة أخرى هذه السيطرة مع الدولة البيزنطية . ويلاحظ من تفحص بقايا الأوابد والمصورات والنقوش تأثر الفنون الساسانية بفنون الأمم المجاورة ، خاصة الهنود والبيزنطيون ، مع استمرار في اتخاذ الأشكال التراثية للمنطقة ، وهي التي ورثها الساسانيون عن الفرس أولاً ، وعن البارثيين والميديين والآشوريين والبابليين وغيرهم من سادة المنطقة في غابر الأزمان ثانياً . ولم يختلف الفن الساساني عن غيره من فنون أمم المنطقة في اعتباره فنّاً في خدمة الدين أولاً ، مع ملاحظة انحراف بسيط عند الساسانيين في اتجاه خدمة الفن للسياسة باعتبار الملوك حماة الدين ، وهو مبدأ ارتكز على قاعدة استنّها أردشير الأول عندما أسس مملكته مفادها أنه : « لا خير في دولة لا دين لها ، ولا خير في دين لا دولة له تحميه » .

١ ـ نقش رجب ونقش رستم

وتعدُّ الصور الجدارية والتي يطلق عليها الآثاريون (نقش رجب)[1] أقدم المنحوتات الجدارية الساسانية إطلاقاً . وهو كما أسلفنا لم ينج من عوادي الزمن ، وكثير من تفاصيله غير واضحة ، ولكنه مع هذا يظهر الإله أهورامزدا يضع على رأسه تاجاً

---

(١) رجب إحدى المناطق القريبة من مدينة برسبوليس التي كانت عاصمة إقليم فارس ، والإمبراطورية الفارسية زمن قورش الكبير وخلفائه .

عالياً ، ويحمل في يمناه خاتم الملكية ، وفي يسراه الصولجان الملكي لتقديمها إلى الملك أردشير الأول ، الذي يبدو في هذه المنحوتة ، وله لحية طويلة مربعة الشكل وشعر قصير . ووقف خلف الملك رقيق يحمل مذبة عالية فوق رأس سيده ، ويميز بعض الآثاريين في هذه الصورة شكل طفلين وسيدتين ربما يرمزان إلى أطفال ونساء من الأسرة المالكة . ويضم نقش رجب أيضاً صوراً جدارية لحفلة تنصيب سابور الأول ملكاً ، والتي جرت سنة (٢٤٢ م) ، والصورة نسخة من صورة أبيه الملك أردشير في نقش رستم حيث يظهر الملك والإله على حصانين متقابلين غير أن الأمكنة بين الملك والإله متبادلين ، فيقف الملك إلى اليمين والإله إلى اليسار في (نقش رجب سابور) ولا وجود لأشخاص جاثمة على الأرض في هذا النقش كما في نقش رجب أردشير . ونظراً لتحطم صورة وجه الملك في النقش ، فإن صورة أهورامزدا تظهره وعلى رأسه تاج تقليدي تبرز منه خصلات شعره الجعد متدلية على الأكتاف ، ويرتبط بالتاج بعض الأشرطة التي تكاد تلامس عقد اللؤلؤ على رقبة الإله الذي يرتدي رداء بأزرار من على صدره وسروالاً فضفاضاً له ثنايا على الفخذين . وقد زينت رقبة حصان الإله بسلسلة مستديرة الحلقات . وفي نقش رستم[1] وهو أفضل حالاً ، إضافة إلى أنه يصور عدداً من المشاهد ، يبدو الإله أهورامزدا والملك في إحدى هذه المشاهد يمتطيان جوادَين (لم يوفق النّحات في نحت حجمها فظهرا أصغر قياساً مقارنة على حجم الملك والإله)[2] ، متقابلين يمسك الإله في يسراه بالصولجان ، ويمدّ يمناه التي تحمل خاتم الملكية المزين بشريط إلى الملك الذي يتناوله بدوره بيده اليمنى رافعاً يده اليسرى مقبوضة الأصابع بالقرب من كتفه علامة الاحترام ، وعلى رأس الملك خوذة مستديرة يعلوها شكل كروي ، مغطاة بقماش رقيق يتدلى قسم منه إلى الخلف ، وهو الشكل الذي ظهر فيه

(١) رستم إحدى المناطق الأخرى القريبة من مدينة برسبوليس (إصطخر) ، وفي هذه المنطقة مقابر ملوك الدولة الفارسية الأولى ، وعدت المدينة المقدسة في العهد الساساني .

(٢) يفسر بعض الآثاريين ظاهرة نحت الجوادين أصغر من حجميهما بالقياس إلى حجم الملك في أن النحات أراد أن يضيف الأهمية المعنوية للملك والإله .

فيما بعد معظم ملوك الدولة الساسانية في المنحوتات وعلى النقود . ويبدو شعر الملك أردشير مجعداً أو مصففاً على شكل حلقات متموجة فوق كتفه . وقد ربط لحيته المدببة بحلقة ضيقة تخرج منها خصلة من الشعر . وعلى رقبته عقد من اللآلئ ، ويبدو الملك وقد ارتدى رداءً ضيق الأكمام . أما الإله فيظهر في المنحوتة يضع تاجاً عالياً على رأسه يظهر من تحته شعره المجعد مع لحية طويلة مربعة الشكل تضفي عليه طابع السّمو والقدم ، ولا يختلف كثيراً لباس الإله عن لباس الملك ، ولا زينة الحصانين ، باستثناء أن سرج حصان الملك مزين بصور الأسود وسرج حصان الإله مزين بصور الورود . وخلف الملك يقف رقيق على رأسه قلنسوة عالية يرفع مذبّة . وتحت حصان الملك صورة رجل يعتقد بعض الآثاريين أنه يمثل الملك البارثي أرطبان ، الذي قتله الملك أردشير ، في حين يظهر تحت حصان الإله صورة مخلوق له شكل الشياطين يعتقد بأنه يرمز إلى إله الشّر أهريمان الذي انتصر عليه الإله أهورا مزدا .

وفي مشهد آخر من نقش رستم خلد الملك سابور الأول انتصاره على الإمبراطور الروماني فاليريانوس . وفيه يظهر الملك على ظهر جواد يرفع رجله اليمنى دليل الغطرسة ، ويضع فوق رأسه تاجاً تعلوه كرة من القماش ، وله لحية كثيفة ومجعدة ، وشعره مجعد مربوط بمجموعة أشرطة تتطاير إلى ظهر الملك الذي يرتدي رداءً وسراويل ضيقتين ، ويتحلّى بعقد على رقبته ، وأقراط في أذنيه ، ويمسك بيسراه قبضة سيفه ، ورافعاً يسراه إلى أمامه وكأنه يهب الأمان والرحمة إلى الإمبراطور فاليريانوس ، الذي يظهره المشهد راكعاً يضع إكليلاً من الغار على رأسه ، ويتطاير رداءه الملكي خلفه ، ويمدّ ذراعيه باتجاه سابور يطلب عفوه ، وقد وقف إلى جانبه رجل بالملابس الرومانية ، يعتقد بعض الآثاريين أنه يمثل أحد خصوم الإمبراطور . وعلى الرغم من كل ما يوجهه منتقدو هذا المشهد من الناحية الفنية ، خاصة في حجم الجواد الصغير قياساً على حجوم أشخاص المشهد ، إضافة إلى تطاير شرائط الملك ورداء الإمبراطور في اتّجاهين متعاكسين ، فإن هذا المشهد يعدُّ من أفضل ما أنتج فن النحت الجداري

الساساني ، حيث تزخر شخصيات المشهد بالحركة التي تعبر أحسن تعبير ، وتخلّد أفضل تخليد مناسبة انتصار سابور وهزيمة فاليريانوس .

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي ، خلَّد الملك نرسي مناسبة تتويجه في نقش رستم . حيث يظهر الملك يتسلّم رموز السلطة الملكية من يد إحدى الإلاهات ، يعتقد بأنها أناهيتا ، وقد ارتدى الملك رداءً عاديّاً ضيقاً ووضع على رأسه تاجاً على شكل قلنسوة قصيرة تصدر منها أشعة ، وفوق التاج الكرة الضخمة من القماش ، ويبرز شعر الملك من تحت التاج مجعداً معقوداً على أشرطة تتطاير خلف رقبته المزينة بعقد اللؤلؤ ، وتتدلى من وجهه لحية مدببة جمع طرفها في حلقة معدنية ، أما الإلاهة فتضع على رأسها تاجاً خاصّاً بالآلهة على شكل جدار مفتوح ، وشعرها مجعد ومضفور على الرقبة المزينة باللؤلؤ ويصل إلى أول الذراعين . وفي الصورة الجدارية نجد صورة لطفل يعتقد أنه ابن نرسي وأخرى لواحد من الأشراف كما تدل عليه خوذته بشكل رأس الحصان .

٢ ـ نقوش أخرى

وعلى صخر مدينة سابور نفسها نقش ملك آخر هو بهرام الثاني صورة تخلد انتصاراته ، وهي التي يعتقد بعض الآثاريين أنه نصر على أقوام منطقة سجستان ، في حين يعتقد آخرون أنه انتصار على إحدى القبائل العربية ، بناء على أن الرجال الذين يبدون في النقش الجداري وضعوا على رؤوسهم قطعة قماش يشدّها على الرأس خيط غليظ . ويتميز بهرام في هذا النقش بارتدائه الخوذة الساسانية سابقة الذكر ، ولكنها مجنحة تتطاير منها الأشرطة ، ويمتطي حصاناً يرفع رجله اليسرى بزهو ، وقد صفَّف شعر الملك ولحيته بالطريقة التقليدية ، ويتعلق بحزامه جعبة سهام ضخمة . يقف أمامه قائد الجيش واضعاً يديه على سيفه المستند إلى الأرض ، ووراءه قائد الأعداء المهزومين الذين يجرون أحصنتهم وجمالهم .

ونظراً للمجد التاريخي الذي تمثله مدينة برسبوليس (إصطخر) لملوك الدولة الساسانية ، وباعتبارهم فرساً ورثة الإمبراطورية الفارسية القديمة أيام قورش الكبير ، فقد حظيت هذه المدينة وضواحيها الصخرية بأكبر عدد من النقوش الدينية والرسمية ، والقصور والأوابد . وتذكر الروايات وتؤكد البقايا أن أردشير الأول أقام فترة من حياته في مدينة كور (فيروزآباد) . التي تقع إلى الجنوب من إصطخر ، والتي أطلق عليها الملك اسم أردشيرخرة (مجد أردشير) ، ويعد قصره الذي ما زالت أطلاله باقية حتى الآن من أول الأبنية التي استخدمت القباب في عمارتها في إيران القديمة ، وكانت جدرانه الخارجية دون نوافذ ولكنها زينت بعدد كبير من النقوش البارزة ، كما زين معبد النار الذي بقيت آثاره أيضاً .

وفي نقش تصويري شهير آخر على صخور مدينة سابور التي شيّدها سابور غربي برسبوليس ، خلد سابور إضافة إلى نقش رستم نصره الكبير على الإمبراطور الروماني فاليريانوس ، وقد أتاحت المسافة المتوافرة على الصخر للفنان أن يعطي للنصر صورة أوضح من نقش رستم سابق الذكر . وعلى هذه المساحة يطالعنا نقشان كبيران :

أولهما ، وهو الأصغر ، يصور سابور يمتطي جواداً يقف أمامه أحد الضباط الرومان من خصوم الإمبراطور فاليريانوس ، وتحت حصان الملك جثة قتيل ، وفوق رأسه صورة إلاهة النصر (نيكه) تضع تاجاً من النار بأشرطة متطايرة على رأس الملك دلالة على الانتصار ، وفي مواجهة الملك صورة تمثل الإمبراطور راكعاً . وعلى يمين ويسار الملك صفين متقابلين من المشاة والفرسان يمثلون كافة فرق وأسلحة الجيش الساساني بما فيها الفيلة .

وثانيهما ، وهو الأكبر[١] ، فيشمل مجموعة من الصور الجدارية المنحوتة في أربعة

---

(١) جدير بالذكر أن النقش الكبير تعرض لتشويه كبير ، وقد تمكن بعض الآثاريين من إعادة تصويره بموجب البقايا الرأسية أو السفلى من أشكال الأشخاص والموجودات .

صفوف مرتبة فوق بعضها ، يظهر في الصف الثالث صورة الملك السابقة مع الإمبراطور مع بعض التفاصيل حيث يظهر رجل إيراني إلى جانب الإمبراطور يقدم للملك خاتماً ضخماً أو تاجاً - وخلف مجموعة الرجال المحيطين بالملك تظهر مجموعة من الرومان وآخرون يقودون أحصنة وأفيالاً . وكل هذه المشاهد تشغل يمين الصف الثالث من النقش ، أما في الصّفين العلويين فتظهر صور رجال يرتدون أردية تصل إلى ركبهم وسراويل تصل إلى كعوبهم ، تشابه الأزياء الباكستانية والأفغانية المعاصرة ، يقودون عدداً من الأسود ويحملون أوعية طعام وتيجاناً وأكياساً ، ربما تمثل جزية أو غلالاً أو غنائم حرب . وقد خصص الفنان أيسر الصفوف الأربعة لتخليد فرسان سابور الذين وضعوا على رؤوسهم قلنسوات أسطوانية طويلة أعلاها مستدير ، يقودهم مجموعة من النبلاء ، الذين حاول الفنان إظهار أشكالهم في اللباس والزينة قريبة من شكل الملك .

وفي المنطقة نفسها ، مدينة سابور ، وعلى الصخر نفسه ، أقام الملك بهرام الأول نصباً تخليداً لذكرى تتويجه ، حيث يظهر في أحد أفضل النقوش الساسانية إن لم يكن أفضلها من ناحية نسبة الأحجام أو إظهار الحركة ، وهو يتلقى تاجه من الإله أهورامزدا ، وكان يرتدي تاجاً له أطراف مدببة ، ويركب كالإله حصانين يتقابلان في الرأسين ويتناظران في رفع القائمة ، فيرفع حصان الإله قائمته اليمنى ويرفع حصان الملك قائمته اليسرى . وقد وفق الفنان في إتقان نسب الأحجام وشكل عضلات الحصانين وابتهاج الملك بتسلُّمه تاجه من الإله .

وبدءاً من عهد أردشير الثاني ، اختار الملوك الساسانيون لتخليد ذكراهم صخور منطقة طاق البستان ، على طريق القوافل بين بغداد وهمدان شمال شرق كرمنشاه ، ويسميه المستشرقون بوابة آسية ، ويبدو أن قرب منطقة هذه الصخور من العاصمة طيسفون (المدائن) ، دفعت أردشير الثاني وخلفاءه للقيام ببناء عدد من قصورهم في هذه المنطقة التي اشتهرت بوفرة مياهها أيضاً . وقد اختار أردشير صخرة بالقرب من

أحد القصور لتخليد مناسبة تنصيبه . وعليها يظهر أهورامزدا مع أردشير متقابلين ويرتديان ردائين يصلان إلى الركب ، الرداء الأول مستدير من آخره يرتديه الملك ، والثاني مقطوع يرتديه الإله . وتحت الردائين سروالان ينتهيان عند القدم بأسورة ، ويتمنطق كل منهما بنطاق تتدلى منه شرائط ، وتحليا بالعقود والأساور . وتحت أقدام الإله والملك صورة عدو مهزوم . وخلف الإله صورة إله آخر اختلف المؤرخون في تحديد هويته . وإلى جانب هذه المنحوتة الجدارية مغارتان حفرتا على الغالب بشكل نصف دائري مقبب أيام سابور الثالث ، حيث احتوت المغارة الأصغر على منحوتة جدارية لسابور الثالث وجهاً لوجه أمام أخيه سابور الثاني يرتديان أزياء تقليدية ، قوامها سروال مثنى ، ورداء يصل إلى الركبة مستدير النهاية ، ونطاق بأشرطة وشعر مجعد مصفف بعناية ، ويتكئ كل واحد منهما على سيف مستقيم طويل يرتكز على الأرض ، ويصل إلى نطاق كل ملك حيث يضع كل منهما يده اليمنى على آخر المقبض واليد اليسرى على آخر .

ويعدّ سابور الأول من أبرز مشيدي المدن في التاريخ القديم بعد الإسكندر المقدوني . وملوك الدولة السلوقية في آسيا الغربية[1] (٣١٢ ـ ٦٤ م) ، وتذكر الروايات أنه بعد تخريبه مدينة سوسا ، عاصمة إقليم سوسيانا جنوب غرب الهضبة الإيرانية ، إثر ثورتها ضدّه أوائل عهده بالملك ، أمر بتشييد مدينة أخرى بالقرب منها أطلق عليها اسم إيران شهرسابور ، كما شيد إلى الشمال منها مدينة أطلق عليها اسم إيران خورة كرد سابور ، ويسميها المؤرخون السريان كرخا الليدان ، التي ما زالت تحتفظ بخرائب قصر أقامه سابور يدعى (إيوان كرخ) ، ولعل أبرز بقايا هذا العصر هي القباب الصغرى المبنية فوق عقود تغطي مساحة الممر الذي يؤدي إلى فناء القصر ، وهو النموذج الذي ساد في عمارة العباسيين فيما بعد ..

(١) تعزو الروايات التاريخية الكلاسيكية للإسكندر إنشاء أكثر من مئة مدينة ، كما تعزو لخلفائه ملوك الدولة السلوقية إنشاء نحو سبعين مدينة .

ملوك الدولة الساسانية وسني حكمهم

١ ـ	أردشير الأول	٢٢٦ ـ ٢٤١ م	Ardshir I
٢ ـ	سابور الأول	٢٤١ ـ ٢٧٢ م	Shapur I
٣ ـ	هرمزد الأول	٢٧٢ ـ ٢٧٣ م	Harmizd I
٤ ـ	بهرام الأول	٢٧٣ ـ ٢٧٦ م	Bahram I
٥ ـ	بهرام الثاني	٢٧٦ ـ ٢٩٣ م	Bahram II
٦ ـ	بهرام الثالث	٢٩٣ ـ	Bahram III
٧ ـ	نرسي	٢٩٣ ـ ٣٠٣ م	Narssai
٨ ـ	هرمزد الثاني	٣٠٣ ـ ٣١٠ م	Harmizd II
٩ ـ	سابور الثاني	٣١٠ ـ ٣٧٩ م	Shapur II
١٠ ـ	أردشير الثاني	٣٧٩ ـ ٣٨٣ م	Ardashir II
١١ ـ	سابور الثالث	٣٨٣ ـ ٣٨٨ م	Shapur III
١٢ ـ	بهرام الرابع	٣٨٨ ـ ٣٩٩ م	Bahram IV
١٣ ـ	يزجرد الأول	٣٩٩ ـ ٤٢٠ م	Yazdigird I
١٤ ـ	بهرام الخامس	٤٢٠ ـ ٤٣٨ م	Bahram V
١٥ ـ	يزدجرد الثاني	٤٣٨ ـ ٤٥٧ م	Yazdigird II
١٦ ـ	هرمزد الثالث	٤٥٧ ـ ٤٥٩ م	Harmizd III
١٧ ـ	فيروز	٤٥٩ ـ ٤٨٤ م	Firuz
١٨ ـ	بلاش	٤٨٤ ـ ٤٨٨ م	Balash

١٩ ـ	قباد الأول	٤٨٨ ـ ٥٣١ م	Kawadh I
٢٠ ـ	كسرى أنوشروان	٥٤١ ـ ٥٧٩ م	Khusraw I
٢١ ـ	هرمزد الرابع	٥٧٩ ـ ٥٩٠ م	Harmizd IV
٢٢ ـ	كسرى الثاني	٥٩٠ ـ ٦٢٨ م	Khusraw II
٢٣ ـ	قباد الثاني	٦٢٨ ـ	Kawadh II
٢٤ ـ	أردشير الثالث	٦٢٨ ـ ٦٣٢ م	Ardashir III
	هرمزد الخامس		Harmizd V
٢٥ ـ	يزدجرد الثالث	٦٣٢ ـ ٦٥١ م	Yazdigird

الملاحق

ملحق رقم (١)

أبهة البلاط السّاساني

أعجب عرب الجزيرة بالأخبار التي كان يتناقلها من زار منهم عواصم الإمبراطورية السّاسانية أو حدّثهم عنها أثناء مروره ببلادهم . ولم يدّخروا وسعاً في تنظيمها وتبويبها ، لدرجة أنه لا يوجد مؤرخ إسلامي واحد لم يبد إعجابه ودهشته بأخبار ملوك الدولة السّاسانية وبلاطاتهم الرائعة .

ففي موضوع اللباس تظهر الرسوم الجدارية كما التماثيل ملابس الملك ، مزينة بمجموعة من الرسوم المطرزة ذات الأصل الصّيني ، وخاصة في تصاوير السحب ، والورود ، وأوراقها المتشعبة البرية والبحرية ، والطيور والحيوانات الأسطورية ، واللآلئ ، والأكاليل ، والنّجوم ، وأشكال النّساء . ويذكر الثعالبي : أن كسرى الأول أو الثاني سأل مرافقه (واسبوهر) أو (خوش أرزو) ، الخلاف هنا في اسم الملك والمرافق بحسب النصوص ، عن أفضل الملابس ، فذكر له نحو عشرة أسماء لألبسة فاخرة يرتديها علية القوم بحسب الفصول . في حين تذكر المصادر الصينية أن لباس عامة الفرس كان يصنع من الصوف واللّباد والجلود في فصول البرد ، والحرير المرسوم في الفصول الدافئة .

وفي موضوع الأثاث اشتهر البلاط السّاساني بسجاجيده الواسعة الفخمة من الحرير ، الموشاة بالذهب ، المزيّنة بالجواهر . والتي رسمت عليها أشهر معالم أقاليم الدولة ، وفصول السنة ، ومناظر الصيد ، وأشكال النّساء .. وكان كسرى الثاني يكثر من تصوير النّساء ، وذلك فيما يبدو لكثرة حريمه اللواتي كنّ يجمعن له من كافّة أرجاء

الدولة ، وبحسب المواصفات التي يأمر بها عندما يقرر تغيير حريمه بين الفترة والأخرى . وقد خلّدت المصادر اسم محبوبته (شيرين) ، التي يصفها الثعالبي بأنّها كانت (روضة الحسن وضرة البدر) ، ومع أن اسمها يعني الجميلة بالفارسية إلا أنه لا يعلم لماذا تذكر المصادر أنها كانت يونانية ، ويبدو ذلك لكونها نصرانية . وكان خلاف شيرين مع زوج الإمبراطور البيزنطية (ماريا) ، وقصص صراعها تتناقلها الأجيال ، والتي انتهت بموت ماريا مسمومة بإيحاء من شيرين على الأرجح .

وتبدو أبهة البلاط السّاساني أكثر ما تكون في الروائح الطيبة التي كانت تفوح في القصر الملكي ، وتذكر المصادر العربية معلومات عن ولع كسرى الثاني بالعطورات لدرجة أنه أمر ولاته ألا يرسلوا تقاريرهم إليه إلا بعد غمسها بماء الورد أو الزّعفران . وقد عرف من هذه الروائح والعطور ، العود والعنبر والمسك والكافور والصّندل والنّرجس والبنفسج والمنثور وغيرها التي كانت تستورد في معظمها من الهند وشبه الجزيرة العربية .

وتؤكد المصادر العربية على غنى المطابخ الملكية ، وغرام الملوك السّاسانيين بلذيذ الطعام ، وتعدّد أنواع المأكولات ذات الأسماء الغريبة ، والأصول المتعددة ، المقلي والمشوي والمسلوق ، وأصناف الحلويات المصنوعة من الدقيق والزيت والسمن والعسل والتّمور والجوز والفستق والبيض والقشدة وغيرها من أطايب الأطعمة ، وقد ورد على لسان أحد مرافقي كسرى الثاني تعريفاً للذائذ الطعام بقوله : « إن أطيب اللحوم في الماشية لحمُ حَمَلٍ رضع من نعجتين ، ورعى لمدة شهرين يشوى في تنور ، ولحم جدي يُسلق سلقاً ، ولحم صدر عجلة لم تحمل أو تلد يوضع مع الطبخ . أما أطيب لحوم الطير فهو لحم الدُّرّج السّمين ، وفراخ الحمام ، وصغار الدجاج ، التي تشوى بالفرن أو السّفّود . وذكر من مأكولات الملوك لحوم العجول والظّباء والأسماك وغيرها مع ذكر لطرائق صنعها وطهيها . وكانت معظم هذه الأطعمة والأشربة تقدم للملوك بأطباق وكؤوس معظمها من الفضّة المزخرفة بصور الملوك أو صور الطبيعة ، وكان الملوك

يتفاخرون بها ، ويقدّمونها هدايا لعلية القوم ، ومعاصريهم من الملوك الأجانب . وقد عثر في التاريخ المعاصر على عدد كبير من هذه الكؤوس الجميلة المعروضة في متاحف العالم والمجموعات الخاصة . لعل أبرزها المعروض في المتاحف الروسية والفرنسية والإيرانية .

واستكمالاً لمتطلبات الرّفاهية ، ضمّ البلاط السّاساني عدداً من الموسيقيين الذين كانوا يصاحبون الملك في مناسباته ، أوَ حفلاته . وكانوا يتمتعون بمكانة رفيعة بين رجال البلاط . وتذكر المصادر أن الملوك كانوا يهتمون بالموسيقى ، حيث كانوا يطلبون من أهلها عزف أنواع معينة من الأنغام .

وذكر المسعودي أن آلات الموسيقى كانت كثيرة يختلف النوع الواحد منها باختلاف الإقليم الذي قدم منه . فكان هناك عود هندي ، وعود فارسي ، وناي صُغْدي ، وناي محلّي ، يختلف كل واحد عن الآخر بعدد ثقوبه ، ومادة صنعه إن كان من النبات أو المعدن . وعرف البلاط السّاساني إلى جانب العود والنّاي الطّبل والمزمار والصّنوج ، خاصة في عهد كسرى الثاني .

واشتهر من الملحنين والمطربين في بلاط الملك نفسه كلٌ من (سركش) و (باربد) اللذين خلّدتها التواريخ الشعبية للفترة المتأخرة من تاريخ الدولة السّاسانية ، وأتى على ذكرهما الفردوسي ، والثعالبي ، والمسعودي ، الذين ذكروا بعض حوادث صراعهما للفوز برضى كسرى الثاني ، وكذلك عن أبرز الألحان التي قام بتلحينها (باربد) لإمتاع مليكه أثناء طعامه ، والتي يذكر أنها كانت مقسمة إلى ألحان يومية ، وأخرى شهرية ، وثالثة سنوية ، تعزف بحسب المناسبات الدينية أو الاجتماعية أو العسكرية أو التقويمية ومزاج الملك الخاص . وقد انتقلت بعض هذه الألحان إلى العرب عبر بغداد كما استمرّ عدد من الاصطلاحات الموسيقية الفارسية في الموسيقى العربية اللاحقة .

ملحق رقم (٢)

درفش كاويان

تعدُّ الرّاية المسماة (درفش كاويان) أقدس الرموز القومية والسياسية في تاريخ الدولة السّاسانية ، ويربطها الفرس عموماً بأساطيرهم القديمة التي تحكي ثورة أحد الحدادين ، ويدعى (كاوك) أو (كاوه) ضدّ طاغية ومغتصب للحكم طال حكمه ، حتى تجاوز الألف سنة ، وتذكر الأسطورة أن كاوك هذا رفع إزاره من الجلد إشارة إلى بدء ثورته التي انتهت بمقتل الطاغية واعتلاء (أفريدون) - وهو أحد أمراء البيت المالك الذي اغتُصب منه العرش ، عرش فارس ، واتّخاذه إزار كاوك علماً لسلالته من حكام إيران ، الذين أطلقوا عليه اسم درفش كاويان ، ويختلف المؤرخون في تفسير اسم العلم ، وهل له علاقة بهذا البطل الأسطوري ، بمعنى (علم كاوك) أو (العلم الملكي) باعتبار أن كلمة كاويان تعني في اللغة البهلوية القديمة (ملك) أو (أمير) .

وعلى الرغم من أهمية هذه الرّاية العظمى في التاريخ الإيراني ، فإنه لا يوجد وصف لها ، في المصادر الفارسية المعاصرة . في حين أتى عدد كبير من المؤرخين المسلمين على وصف هذا الأثر .

فيصفه الطّبري : بأنه كان مجموعة من جلود النُّمور طولها اثنا عشر ذراعاً ، وعرضها ثمانية أذرع .

ويضيف البلعمي إلى ذلك وصفه أن العلم كان مطرزاً أو محاكاً بخيوط الذهب والفضة ومزيناً بالجواهر واللآلئ الثمينة ، وأن ملوك الفرس القدماء كانوا إثر انتصاراتهم في المعارك يضيفون إلى زينة العلم بعض الأحجار الكريمة من الغنائم .

ويفصل المسعودي في وصف العلم بأنه كان مرصّعاً بالياقوت واللؤلؤ .

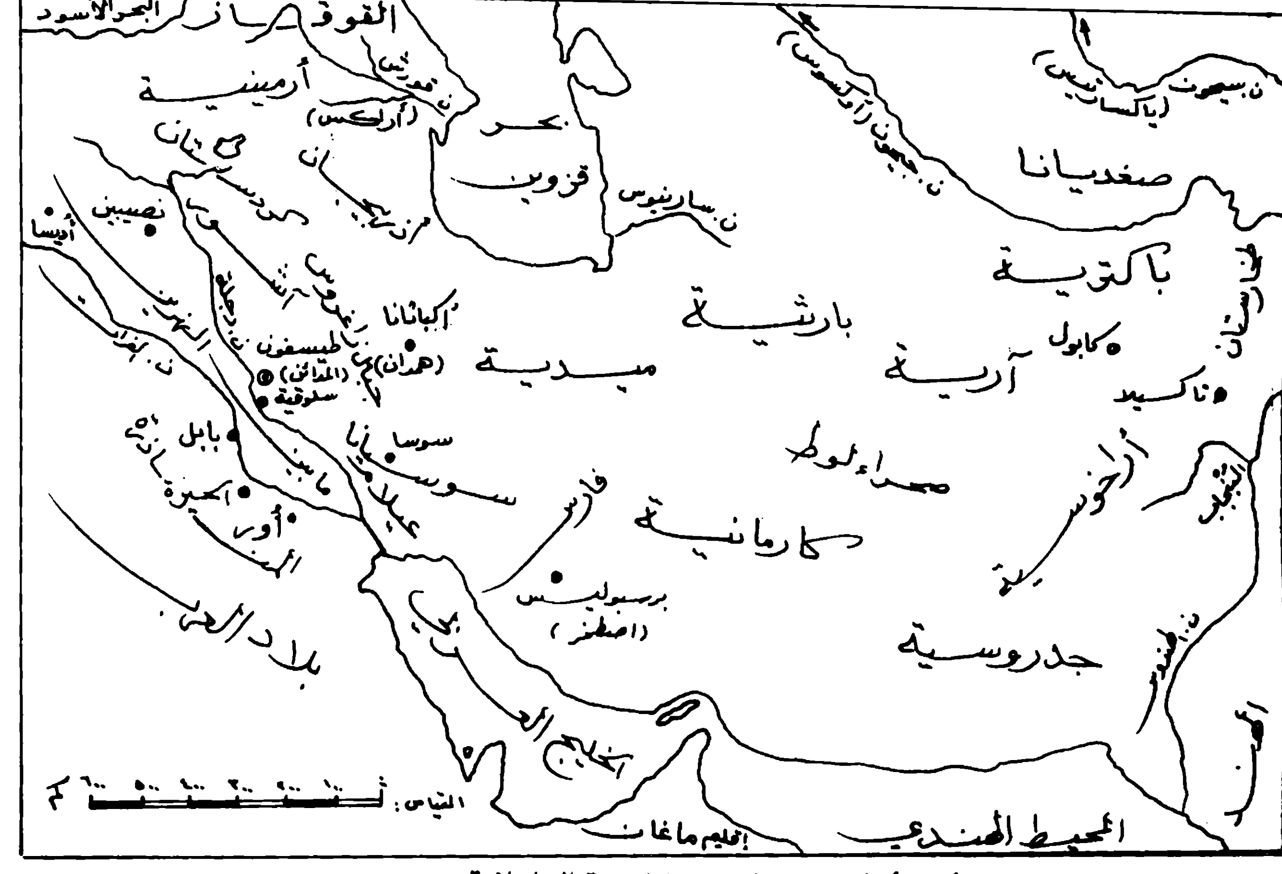
ويختلف الخوارزمي عمن سبق بقوله : إن العلم كان في أصله مصنوعا من جلد دبّ أو من جلد أسد . ولكن الملوك الفرس أرادوا تعظيمه فوشّوه بالذّهب والأحجار الكريمة .

في حين يذكر الثعالبي أنه بلغ من شدة تعظيم الملوك الفرس لهذا الرمز ، أن بالغوا في تحسين مظهره لدرجة جعلته فريد عصره في الأبهة والجلال والعظمة ، وأن هذه الرّاية كانت تتقدم جيوشهم في المعارك تبرُّكاً وتيمُّناً وأنهم كانوا يردّونها إلى خزانة الملك بعد انتهاء الحرب .

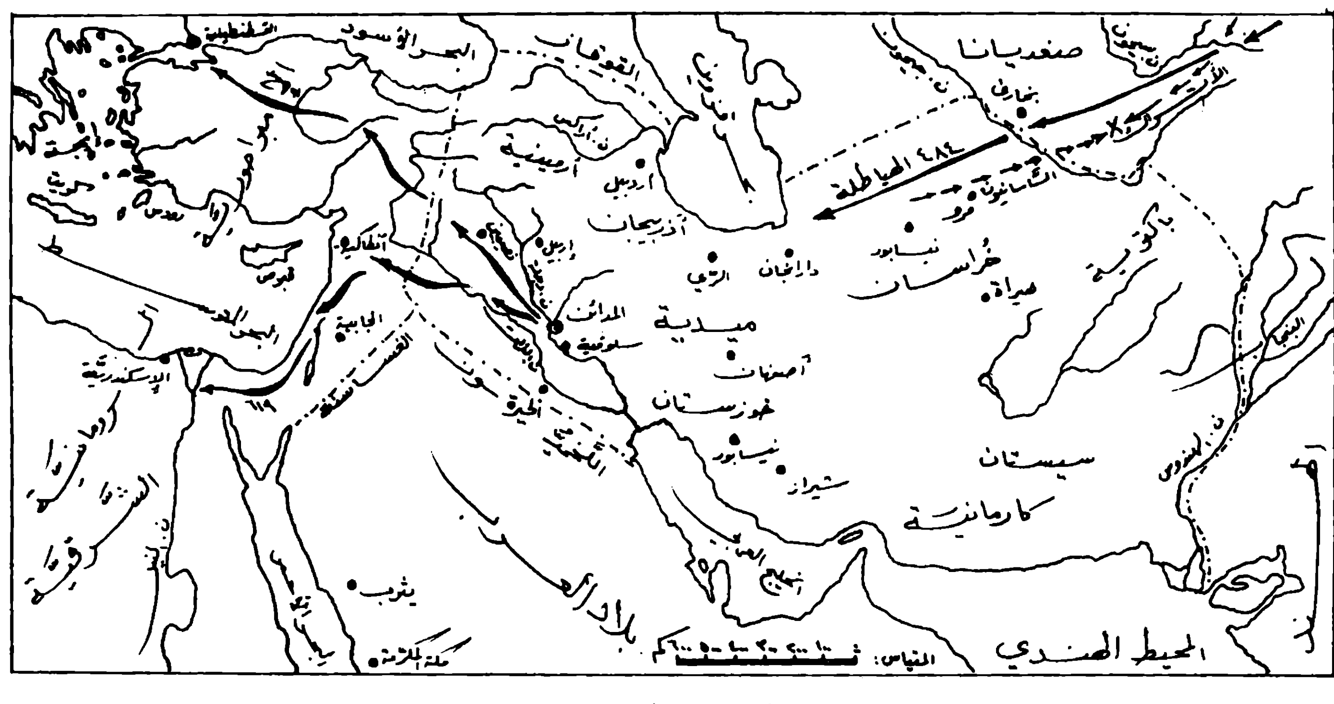
ويماثل هذا القول ما يذكره مطهر بن طاهر المقدسي وكذلك الفردوسي الذي أضاف بأن الرّاية كانت من مستلزمات مظهر الملك ، وكانت توضع وقت الحرب إلى جانب المنصّة الملكية ، ويقوم على رعايتها خمسة من رجال الدين الذين يحملونها في مقدمة الكتائب العسكرية ، ويحميها أكفأ أبطال الجيش المقرّبين من الملك .

ويختلف المؤرّخون المسلمون حول اسم البطل الذي وقعت الرّاية في قبضته أثناء موقعة القادسية ، فيذكر المسعودي أنه كان ضرار بن الخطاب الذي عوضه سعد بن أبي وقاص عنها بثلاثين ألفاً ، في حين أن قيمتها كانت تتجاوز المليونين (ألفي ألفي دينار !!) .

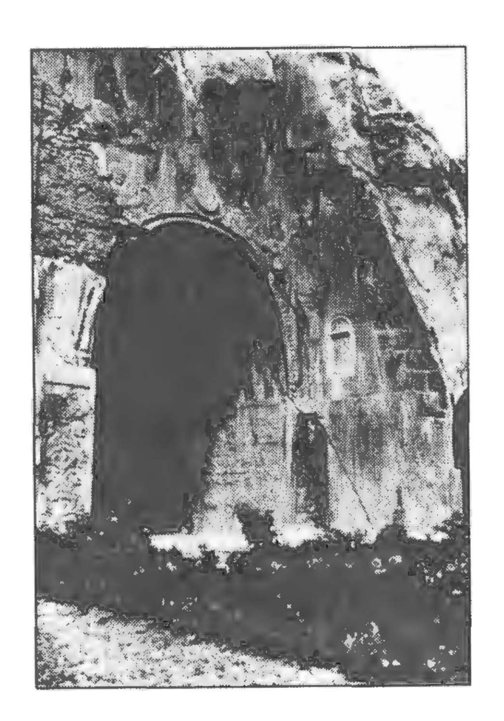
في حين يذكر الثعالبي أنها وقعت بين يدي أحد المجاهدين ، دون ذكر اسمه ، وأن سعداً ضمّها إلى قافلة الغنائم التي أرسلها مع تاج كسرى إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي وزّعها بدوره على المسلمين .



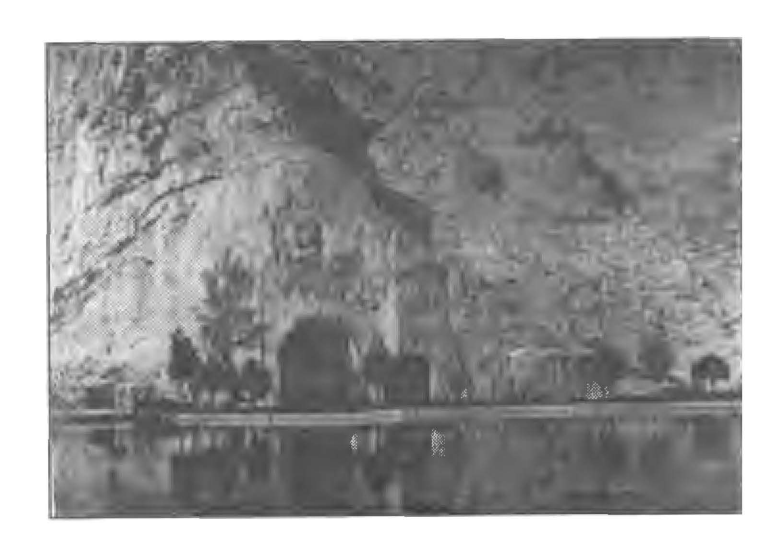
أهم الأقاليم والمدن في الإمبراطورية الساسانية



حملات كسرى الثاني



طاق البستان - المدخل الرئيسي



طاق البستان - منظر عام

مفيد رائف محمود العابد

- من مواليد دمشق ١٩٤٣.
- دكتوراه في التاريخ القديم.
- متخصص في التـاريـخ الإغريقي والروماني.
- شغل وظائف التدريس في جامعـات دمشق والإمارات وصنعاء.
- أستاذ بجامعة الملك سعود حالياً.
- له عدد من المؤلفات منها :
  - تاريخ اليونان.
  - الآثار الكلاسيكية.
  - دراسات في تاريخ الإغريق.
  - سورية في عصر السلوقيين.

FEATURS OF
THE HISTORY OF THE SASSANIAN STATE

(shesroes Age A.D.226-651)

Ma alim Tarikh al-Dawlah al-Sasaniyah
(Asr al-Akasirah, 226-651 m.)



غاية هذه الدراسة إلقاء الضوء على فترة تاريخية هامة في الشرق المسلم والعالم المتحضر، لم يبذل المؤرخون العرب المعاصرون جهوداً ملموسة في سبيل التعريف بها، أو البحث في ثناياها وأعماقها.

ولكون هذه الدولة واحدة من أشهر دول التاريخ القديم، فقد اهتم بدراستها منذ القرن الثامن عشر عدد كبير من المستشرقين، عنوا بدراسة العقائد الدينية الفارسية كثيراً، وتأثير الفكر الفارسي وتأثره بحضارات الأمم المجاورة.

ويلاحظ على هذه الدراسة أنها تزود المثقف غير المتخصص فضلاً عن الطالب الجامعي بالمراحل السياسية، والحضارية للساسانيين، مع ربطها بالأحداث العالمية المعاصرة، دون تفصيل ممل أو اختصار مخلّ.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

